القــراءة العضيــن
وأثرها في افتراق المسلمين

بقلـــم

د. سعد بن علي الشهراني

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة بجامعة أم القرى



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]

أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه و سلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

وبعد :

فإن القراءة الشمولية للنص الشرعي ضرورية لسلامة فهمه ، وحسن تطبيقه وتعليمه ، وهي ضمان للأمة من الاختلاف الذي ينشأ عن القراءة العضين التي تأخذ بموجبها كل فرقة ما تهوى من النص الشرعي وتترك منه مالا تهوى ، فيضربون نصوص الشرع بعضها ببعض ،وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ضرب النصوص بعضها ببعض، وأن علينا العمل بما علمنا، ورد ما لم نعلم إلى العلماء الراسخين، كما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حمر

النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: مهلًا يا قوم! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه) (١).

لكن أهل الأهواء والافتراق لم يردوه إلى العلماء الراسخين، وحكّموا أهواءهم بغير علم ولا هدى، وأعملوا عقولهم في النصوص الشرعية وتركوا نصوصًا أخرى تحكمًا بغير دليل ولا برهان، وقعدوا قواعد وأصولًا بناءً على هذه الأدلة الجزئية، وبدعوا وكفروا من خالفهم، مدعين ــ زورًا وبهتانًا ــ أن ما توصلوا إليه هو دلالة الكتاب والسنة، وإنما رأوا بعض الحق لأن بصائرهم يحكمها الهوى ويغطيها الجهل عن أن ترى الحقيقة بكمالها وشمولها؛ لأن عين الهوى لا ترى إلا ما تهوى، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية:٢٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٤/١١) وقال محققه (صحيح) بشواهده وقال الشيخ الألباني إسناده حسن السلسلة الصحيحة: (٩٦/٤) .

ولقد عانت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل من هذا التفرق في الدين، وخرجت الفرق تترى كل حزب بما لديهم فرحون، فكل فرقة تزعم أنها صاحبة الحق وغيرها في ضلال مبين.

وكلٌّ يدعي وصلًا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاك

وكان من أبرز وأهم أسباب ضلال هذه الفرق هو (القراءة العضين)، وبعبارة أوضح: العمل ببعض الدين وترك البعض الآخر، وعدم فهم الإسلام بشموله وكماله وعدم الجمع بين النصوص الشرعية في المسألة الواحدة، دونما ضرب بعضها ببعض، أو توهم التعارض فيما بينها.

والمتتبع والمتأمل لتاريخ الفرق يجد هذه المفارقة بين كل طائفتين من الطوائف الضالة حول قضية من قضايا الاعتقاد الكبرى، وكل منهما يقف في طرف مضاد للآخر، وتتمسك كل طائفة بنصوص شرعية تستند إليها فيما ذهبت إليه، وتفهم هذه النصوص وتتأولها وفق رؤيتها وهواها، ولكن الحق وسط بين هاتين الطائفتين، كما قال ابن القيم رحمه الله: ((وما أمر الله بأم إلا وللشيطان فيه نزعتان؛ إما تفريط وإضاعة، وإما إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيعٌ له، فالغالي فيه مضيعٌ له، هذا بتقصيره عن الحد،

وهذا بتجاوزه الحد)) (١).

وواقع الفرق قديمًا وحديثًا يؤكد هذه المفارقة بين الفرق، وقصدها طرفي المسألة، وبعدها عن الوسط والاعتدال، ولهذا جاء هذا البحث ليؤكد خطورة القراءة العضين وأخذ بعض الحق وترك بعضه الآخر، ويبين الآثار الخطيرة التي تركها هذا المنهج العضين في الأمة، وليدعو إلى فهم الدين بمنهج شمولي متكامل، يأخذ بمجامع هذا الدين العظيم دونما تفريط وإضاعة، أو إفراط وغلو، منهج يمتثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة البقرة:٢٠٨].

إن القراءة العضين (الجزئية) للنص الشرعي تطمس معالمه ، وتحجب عن الحق المستودع فيه ، وقد وقعت فئام من هذه الأمة في هذه القراءة ، رغم تحذير النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وذمه لأصحابها ، وتبيينه على عمق الضلال الذي توصلهم هذه القراءة له ؛ «فهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان »(٢).

أسباب اختيار الموضوع :

١- بيان مفهوم «القراءة العضين» انطلاقا من الآية الكريمة:

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]

٢- بيان الأسباب التي أدت إلى الوقوع في «القراءة العضين»

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤٩٦) .

(٢) أخرجه البخارى (٣/١٢١٩، رقم ٣١٦٦)، ومسلم (٢/٧٤١، رقم ١٠٦٤)، وأبو داود (٤/٢٤٣، رقم ٤٧٦٤)، والنسائى (٥/٨٧، رقم ٢٥٧٨) الطيالسى (ص ٢٩٦ ، رقم ٢٢٣٤)، من حديث أبي سعيد الخدري .

٣- بيان خطورة منهج التعضية والتجزئة في النصوص الشرعية ، وآثارها الخطيرة على الأمة .

٤- الدعوة إلى الفهم الشمولي للدين والذي طبقه السلف الصالح في حياتهم فأثمر خير أمة أخرجت للناس حين امتثلوا وطبقوا قوله تعالى :« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة »

الدراسات السابقة :

وقد ظلت الكتابات التي تحذر من هذه القراءة مبعثرة في كتب العقائد ، وشروح الأحاديث ، وكتب التفسير ، مما يصَعِّب وصول الباحث الشرعي لها ، ولم أر حسب اطلاعي من أفرد لها مؤلفا خاصا ؛ وعامة كتب الافتراق قديما جاء ذكر القراءة العضين فيها عرضا، أما الدراسات الحديثة وكتب الفرق والموسوعات فلم تعن بإبراز هذا الموضوع وإعطائه حقه من البحث العلمي ،رغم أهميته وخطورته ومدى تأثيره على الأمة .

الصعوبات التي واجهتني :

فأهمها جدة الموضوع وقلة الكتابة فيه؛ مما دعاني للتنقيب في الأدلة وأقوال العلماء والأئمة لاستجلاء موقفهم من هذه «القراءة العضين».

منهج البحث :

أما منهج البحث فقد سرت وفق المناهج المعتبرة في البحث العلمي ، حيث اتبعت المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات الدالة على منهج التجزئة والتعضية للدين، ونحوها من الآيات التي تبين الآثار الخطيرة لهذه «القراءة العضين».

كما اتبعت المنهج التحليلي والنقدي وذلك لتحليل ونقد الفرق التي زاغت عن منهج العدل والصواب .

وقسمت البحث إلى خمسة مباحث :

المبحث الأول : مفهوم القراءة العضين

المبحث الثاني :أسباب القراءة العضين

المبحث الثالث : آثار القراءة العضين

المبحث الرابع : نماذج من القراءة العضين

المبحث الخامس : القراءة الشمولية وأهميتها في دفع القراءة العضين.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث ويجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون مسهما في كشف هذه القراءة العضين وبيان عوارها، داعيا إلى فهم الدين فهما شموليا .

وكفى بربك هاديا ونصيرا .

المبحث الأول
مفهوم القراءة العضين

إن تحديد المصلحات وفهم مدلولاتها هو أول خطوة في فهم المراد ، وإن معظم اختلاف الناس ناشئ من جهة الاختلاف في المصطلحات ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله : "أكثر اختلاف العقلاء من جهة الأسماء " [1]

ولهذا كان لزاما أن نفهم المراد بكلمة "عضين " والتي بني هذا البحث على أساسها ، بل جعلت رأسا في عنوانه ، وسوف أورد فيما يلي مفهوم هذه الكلمة القرآنية العظيمة من لغة العرب التي نزل بها القرآن ، ثم أقوال المفسرين فيها ، وأقوال بعض العلماء الراسخين لتكون عونا لنا في بداية هذا البحث في توضيح المقصود بهذه القراءة :

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩١]

(١) درء تعارض العقل والنقل ـ معنون - (١ / ١٣٣)

معنى العضين لغة :

التعضية في لغة العرب هي: التجزئة

قال ابن فارس :

« العين والضاد والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تجزئةِ الشَّيء. من ذلك العِضْو والعُضْو. والتَّعضية: أن يُعَضِّيَ الذّبيحة أعضاء. والعِضَةُ: القِطعة من الشيء، تقول: عَضّيْتُ الشيء أي وزَّعته. قال رؤبة:

«وليس دينُ الله بالمُعَضّى» . أي :بالمفرَّق.

قال الخليل: « وقوله تعالى: {الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ} [الحجر ٩١]، أي عِضَة عِضة، ففرَّقوه، آمنوا ببعضه وكَفَرُوا ببعضه».

والاسم منه التَّعضية.

ومنه الحديث: «لا تَعْضِيَةَ في ميراث» (١) أي لا تَقسِموا ما [لا] يحتمل القَسْم كالسَّيف والدّرَّة وما أشبَهَ ذلك. » (٢)

---

(١) ذكره أبو عبيدة غريب الحديث لأبي عبيد ابن سلام - (٢ / ٧) ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى - (١٠ /١٣٣) كتاب آداب القاضي باب ما لا يحتمل القسمة. وعقب عليه بقوله : قال الشافعي في القديم: "ولا يكون مثل هذا الحديث حجة لأنه ضعيف وهو قول من لقينا من فقهائنا قال الشيخ رحمه الله وإنما ضعفه لانقطاعه وهو قول الكافة"

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤ / ٣٤٧) .

وإلى هذا المعنى الذي ذكره ابن فارس أشارت معاجم اللغة العربية(١)

فذكرت أن التعضية في اللغة هي : التجزئة .

والمفسرون فسروا الآية الكريمة بهذا المعنى وهو التجزئة ، سواء قيل بتجزئة النص نفسه ، أو تجزئة القول فيه .

قال ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} قَالَ: «فِرَقًا » جَزَّءُوهُ فَجَعَلُوهُ أَعْضَاءَ كَأَعْضَاءِ الْجَزُورِ.

و عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: « جَزَّءُوهُ فَجَعَلُوهُ أَعْضَاءَ، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ » (٢)

---

(١) انظر مجاز القرآن (١ / ٣٥٥) . غريب القرآن لابن قتيبة - (١ / ٢٣٩). مفردات القرآن ـ للراغب ـ (١ / ٥٧١)غريب الحديث لأبي عبيد ابن سلام - (٢ / ٧)مشارق الأنوار على صحاح الآثار - (٢ / ٩٧)
النهاية في غريب الأثر - (٣ / ٤٩٧) الصحاح في اللغة - (١ / ٤٧٨). المحكم والمحيط الأعظم - (٢ / ٢٩١).
تاج العروس من جواهر القاموس - (٣٩ / ٦٠). تهذيب اللغة ـ (٣ / ٤٤) . جمهرة اللغة - (٢ / ٧). كتاب العين - (٢ / ١٩٣) . لسان العرب - (١٥ / ٦٨). المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد - (٢ / ١٠٤). الجليس الصالح والأنيس الناصح - (١ / ١٢٦).

(٢) تفسير الطبري ٣١٠ - (١٤ / ١٣٤)

قال ابن كثير رحمه الله :

« أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.» (١)

قال البغوي : « جزَّؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. »(٢)

قال الشيخ السعدي : « أي: أصنافا وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوونه، فمنهم من يقول: سحر ومنهم من يقول: كهانة ومنهم من يقول: مفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى. »(٣)

---

(١) تفسير ابن كثير - (٤ / ٥٤٩)

(٢) تفسير البغوي - (٤ / ٣٩٣)

(٣) تفسير السعدي - (١ / ٤٣٥) وكون التقسيم والتجزئة مقصودا من معنى هذه الآية أطبقت عليه كلمة المفسرين. صحيح البخاري (٦ / ١٠٢) . المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص– (٢ / ٣٨٧)
انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي - (٨ / ٦٥١) و تفسير مجاهد - (١ / ١٩١) و تفسير الثوري - (١ / ١٦٢)و تفسير المنار - (٢ / ١٠) ، تفسير المنار - (٢ / ٢٠٦) ، تفسير المنار - (٥ / ١٢٢) ، تفسير المنار - (٨ / ٣٨) ، تفسير المنار - (١٠ / ١٧٩) . معانى القرآن ـ للأخفش - (٢ / ٦٤) المحرر الوجيز - (٤ / ١٤٥) . معاني القرآن للفراء (٢ / ٩٢) . البحر المحيط (٦ / ٤٨١) . التحرير والتنوير - (١٣ / ٦٨) . تفسير الكشاف مع الحواشى (٢ / ٥٩٠) . تفسير الماوردى - النكت والعيون - (٣ / ١٧٢) . روح المعانى (٧ / ٣٢٣). زاد المسير في علم التفسير - (٤ / ٧٦). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - (٢ / ٣١٨) . تفسير أبي السعود - (٤ / ٩٣) . تفسير الرازي : مفاتيح الغيب (١٩ / ١٦٩) . تفسير الشعراوي - (١ / ١٣٦٥) ، تفسير الشعراوي - (١ / ٤٨٢٨) تيسير التفسير للقطان - (٢ / ٣٠٥). زهرة التفاسير - (١ / ٣٩)، زهرة

قال ابن جرير رحمه الله ـ مبينا المأخذ اللغوي لهذا القول ـ

« فَوَجَّهَ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَوْلَهُ: {عِضِينَ} إِلَى أَنَّ وَاحِدَهَا: عُضْوٌ، وَأَنَّ عِضِينَ جَمْعُهُ، وَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ عَضَّيْتُ الشَّيْءَ تَعْضِيَةً: إِذَا فَرَّقْتَهُ، كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

وَلَيْسَ دِينُ اللهِ بِالْمُعَضَّى

يَعْنِي بِالْمُفَرَّقِ وَكَمَا قَالَ الآخَرُ:

وَعَضَّى بَنِي عَوْفٍ فَأَمَّا عَدُوَّهُمْ ... فَأَرْضَى وَأَمَّا الْعِزَّ مِنْهُمْ فَغَبَرَا

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: « وَعَضَّى »: سَبَّاهُمْ وَقَطَّعَاهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمَا.(١)

وما فسر به المفسرون هذه الآية يشهد له آيات كثيرة في القرآن الكريم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة:١٧٦]

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[آل عمران:١٠٥]

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }[هود: ١١٠] .

التفاسير - (١ / ٥١٦) ، زهرة التفاسير - (١ / ٦٥١) . فتح الباري - ابن حجر - (٧ / ٢٧٧)، فتح الباري - ابن حجر - (٣٨٢/٨) ، فتح الباري - ابن حجر - (٨ / ٣٨٣) . المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم - (١٦ / ٥٩) . وقد روي تفسير هذه الآية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المقصود بها اليهود والنصارى آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض . ولكنه حديث لا يصح انظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٤١٦) .

(١) تفسير الطبري ٣١٠ - (١٤ / ١٣٦)

المقصود بالقراءة العضين :

بناء على ما مر من تعريف لغوي للتعضية وكلام للمفسرين حول هذه الآية يمكن تعريف القراءة العضين بأنها :

«قراءة جزئية للنص الشرعي لا تستوعب معناه كاملا وتغفل مقاصده ».

ويمكن تعريفها بأنها :

«قراءة انتقائية للنص للشرعي يأخذ المنتقي من النص ما يهوى ، ويدع منه ما لا يوافق هواه » .

أو هي قراءة : « تجعل النص تابعا لا متبوعا ، وموظَّفا لا مؤسِّسا ، ومستخدَما لا مَخْدوما ومحكوما عليه لا حكما »

أو هي قراءة: «تتمركز حول المتشابهات وتهمل المحكمات »

أو هي حسب التعبير القرآني: «الاختلاف في الكتاب »

إن هذه القراءة تقوم على منهج الأخذ ببعض الحق وترك بعضه الآخر،و الأخذ ببعض النصوص الشرعية وإهمال النصوص الأخرى، وهو منهج تجزئة الدين، أي: الأخذ ببعض أجزائه، وهو مشتق من الجزء، والجزء: البعض، وجزّأه: قسمه أجزاء، والجَزَء: الاستغناء بالشيء عن الشيء (١).

---

(١) القاموس المحيط (ص٣٦)، ولسان العرب (٢/٢٦٨).

وهي قراءة حاولت تشويه الدين وحصره في جزئية ضيقة لا يمكن اختزال الدين فيها، وهذه القراءة لم تفهم الدين بشموليته، ولم تفهم المراد من الأدلة الشرعية.

ومنشأ هذه القراءة الجزئية هو سوء الفهم لمراد الله تعالى ورسوله.

ويصور ابن القيم بعبارة مشرقة ضرورة حسن الفهم للنص الشرعي ؛ فيقول: ((ينبغي أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إذا أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده، وسوء القصد من التابع، فيا محنة الدين وأهله! والله المستعان.

وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ، حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس، هو موجب هذه الأفهام! والذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم عن الله ورسوله ﷺ فمهجور لا يلتفت إليه، ولا يرفع به هؤلاء

رأسًا ... حتى إنك لتمر على الكتاب من أوله إلى آخره، فلا تجد صاحبه فهم عن الله ورسوله مراده كما ينبغي في موضع واحد.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول ، وأما من عكس الأمر فعرض ما جاء به الرسول ﷺ على ما اعتقده وانتحله، وقلد فيه من أحسن به الظن، فليس يجدي الكلام معه شيئًا، فدعه وما اختاره لنفسه، ووله ما تولى، واحمد الذي عافاك مما ابتلاه به)) (١).

وقد بدأت الشرارة الأولى لهذه القراءة في الإسلام مع ذي الخويصرة ؛ حين قال للرسول صلى الله عليه وسلم : «أعدل» فهو مقر له بالرسالة مع تجويز الجور على الرسول صلى الله عليه وسلم إمام العادلين والرحمة للعالمين ، فقرأ نبوته ولم يقرأ تلازم النبوة مع العدل والعصمة من الجور . ثم تتابع ظهور القراءة العضين مع كل ضال عن الشرع متبع لهواه . وبدأ أهل العلم يسقطون على أهل الأهواء معنى هذه الآية الكريمة .

قال البخاري رحمه الله :

« وَحَرَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ الأَهْوَاءِ كُلَّهُمْ ، أَنْ يَجِدُوا عِنْدَ أَشْيَاعِهِمْ ، أَوْ بَأَسَانِيدِهِمْ ، حُكْمًا مِنْ أَحْكَام الرَّسُولِ أَوْ فَرْضًا أَوْ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ ، إِلاَّ مَا يَعْتَلُّونَ بِأَهْلِ الْحَدِيثِ ، إِذْ بَدَا لَهُمْ ،

---

(١) الروح (ص٨٤).

كَالَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ، فَآمَنُوا بِبَعْضٍ ، وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، فَمَنْ رَدَّ بَعْضَ السُّنَنِ مِمَّا نَقَلَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ ، فَيَلْزَمُهُ أَنْ يَرُدَّ بَاقِيَ السُّنَنِ ، حَتَّى يَتَخَلَّى مِنَ السُّنَنِ وَالْكِتَابِ ، وَأَمْرِ الإِسْلاَمِ أَجْمَعَ . وَالْبَيَانُ فِي هَذَا كَثِيرٌ».(١)

قال ابن القيم رحمه الله : « فلا يجوز ان يجعل كلام الله ورسوله عضين بحيث يؤمن ببعض معانيه و يكفر ببعضها »(٢)

وبين الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ضرورة الجمع بين الآيات المتقابلة فيقول:

« وَفَهْمُ الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ صَحِيحًا إِلَّا بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَخْتَلِفُ التَّعْبِيرُ فِيهَا بِاخْتِلَافِ الْوُجُوهِ وَالِاعْتِبَارَاتِ الَّتِي ضَلَّتِ الْفِرَقُ بِنَظَرِ كُلٍّ مِنْهَا إِلَى إِحْدَاهَا دُونَ الْأُخْرَى مُطْلَقًا ، أَوْ جَعْلِهَا مَا وَافَقَ مَذْهَبَهَا أَصْلًا يَرُدُّ غَيْرَهُ إِلَيْهِ بِالتَّأْوِيلِ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، وَمَثَلُ الْجَبْرِيَّةِ مَعَ الْقَدَرِيَّةِ هُنَا كَمَثَلِ الْمُرْجِئَةِ مَعَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ آيَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مِنْ : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (١٥ : ٩١) وَضَرَبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ . »(٣)

---

(١) خلق أفعال العباد - (١ / ١٣٠)

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح - (١ / ٢٤١)

(٣) تفسير المنار - (١٠ / ١٧٩)

هذه القراءة العضين مخالفة لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ فإن الذي يأخذ بعض الدين ويترك بعضه لم يدخل في السلم كافة .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله :

«ادخلوا فى الإسلام بكل شرائعه وأحكامه ، فلا تأخذوا بحكم وتتركوا حكما ، فلا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة ، ولا تأخذوا بأحكام الزواج وتتركوا أحكام الربا ، ولا تأخذوا بنظام الميراث وتتركوا أحكام الحدود وتعطلوها ، وهكذا لا يصح أن يؤخذ بعض الإسلام ، ويترك بعضه ، من فعل ذلك كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه ، وكان كمن جعل أحكام القرآن عضين ، فيفرق بينها بالطاعة والعصيان ، والأخذ والترك ، وأحكام الإسلام كل لا يقبل التجزئة ، ومجموعها هداية العقول ، وطب القلوب ، وعلاج الأدواء الاجتماعية والشخصية ، فمن أخذ ببعضها وترك الآخر ، فقد فتح فى قلبه للشيطان ثلمة ينفذ منها ، وحيثما حل الشيطان فى قلب زلت الأقدام ، وحكمت الأوهام ، فيطمس نور الهداية من قلبه ، وتنحل عرى الإسلام فى نفسه من بعد ذلك عروة عروة. »(١)

ولقد شرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القراءة العضين شرحا نفيسا محذرا منها ، وذاكرا بعض أضرارها. ونحن نسوق

---

(١) زهرة التفاسير - (١ / ٦٥١)

شرحه بطوله لأهميته. فقال رحمه الله :

((وهذا كما قال عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة:١٤].

فأخبر أن نسيانهم حظًّا مما ذكروا به ـ وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به ـ كان سببًا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعه، من أهل الأصول والفروع، ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد، ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة: ليست الأخرى على شيء، كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة، كل منهما ينفي طريقة الآخر، ويدعي أنه ليس من أهل الدين، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين، فتقع بينهما العدواة والبغضاء...

وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغي الذي هو مجاوزة الحد؛ إما تفريطًا وتضييعًا للحق، وإما عدوانًا وفعلًا للظلم. والبغي تارة يكون من بعضهم على بعض، وتارة يكون في حقوق الله، وهما متلازمان، ولهذا قال: { بَغْيًا بَيْنَهُمْ} ، فإن كل طائفة بغت على الأخرى، فلم تعرف حقها الذي

بأيديها، ولم تكف عن العدوان عليها.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [سورة البينة:٤].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة:٢١٣].

وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك.

وقال: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران:١٠٥].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٩].(١)

ويؤكد ابن تيمية هذا المعنى في موضع آخر فيقول: ((قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا

---

(١) مجموع الفتاوى - (١ / ١٦)

ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة:١٤].

فهذا نص في أنهم تركوا بعض ما أمروا به، فكان تركه سببًا لوقوع العدواة والبغضاء المحرمين، وكان هذا دليلًا على أن ترك الواجب يكون سببًا لفعل المحرم، كالعدواة والبغضاء، والسبب أقوى من المسبب» .

إلى أن قال: « وبالجملة فالأمور نوعان: أخبار وإنشاء.

فالأخبار ينقسم إلا إثبات ونفي: إيجاب وسلب، كما يقال في تقسيم القضايا إلى إيجاب وسلب.

والإنشاء فيه الأمر والنهي.

فأصل الهدى ودين الحق هو: إثبات الحق الموجود، وفعل الحق المقصود، وترك المحرم، ونفي الباطل تبع، وأصل الضلال ودين الباطل: التكذيب بالحق الموجود، وترك الحق المقصود، ثم فعل المحرم وإثبات الباطل تبع لذلك، فتدبر هذا فإنه أمر عظيم تنفتح لك به أبواب من الهدى » (١).

وبعد هذا التعريف والبيان للقراءة العضين من خلال أقوال علماء اللغة والتفسير لابد من ذكر أسباب القراءة العضين .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٩- ١١٢).

المبحث الثاني

أسباب القراءة العضين

إن للقـراءة العضـين أسـبابا عديـدة وكثـيرة ولسـنا بصـدد الإحاطة بها ؛ولكن سأشير إلى أبرز أسباب هذه القراءة :

أولا : الجهل وقد أشار إلى هذا االسبب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم في وصفه للخوارج حين قال عنهم «يقرؤون القـرآن لا يجاوز حناجرهم »(١)

ووصفه للأئمة المضلين بقوله : « اتخذ الناس رؤوسًـا جهـالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضل وأضلوا » (٢)

وهذا السبب يتشخص في ظواهر متعددة :

ـ تكلم من ليس من أهل العلـم الشـرعي أصـلا في المسـائل الشرعية ، وهذه الظاهرة كثرت في هذه الأزمـان ، فصـرت تـرى الصحفي والمهندس والطبيب ومن لا صـلة لـه بـالعلم الشـرعي

---

(١)،أخرجه البخارى (١٢١٩/٣، رقم ٣١٦٦) ، ومسلم (٧٤١/٢ ، رقم ١٠٦٤) ، وأبو داود (٢٤٣/٤ ، رقم ٤٧٦٤) ، والنسائى (٨٧/٥ ، رقم ٢٥٧٨) ، الطيالسى (ص ٢٩٦ ، رقم ٢٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢/٢ ، رقم ٦٥١١) ، وابن أبى شيبة (٥٠٥/٧ ، رقم ٣٧٥٩٠) والبخارى (٥٠/١ ، رقم ١٠٠) ، ومسلم (٢٠٥٨/٤، رقم ٢٦٧٣) ، والترمذى (٣١/٥ ، رقم ٢٦٥٢) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (٢٠/١ ، رقم ٥٢) . وأخرجه أيضًا : الدارمى (٨٩/١ ، رقم ٢٣٩) ، وابن حبان (٤٣٢/١٠ ، رقم ٤٥٧١) .

يتكلم في أدق المسائلة الشرعية ، وأعوص النوازل الفقهيـة ويبـدي فيها رأيه ، ويسفه أهل العلم الشرعي . وفي مصيبة هذا النوع يقول ابن حزم : « لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهـم من غير أهلها ؛فإنهم يجهلون ويظنـون أنهـم يعلمـون ، ويفسـدون ويقدرون أنهم يصلحون »[1]

وقديما قيل : «لو سكت من لا يعلم لقل الخلاف »

وقد يكون عند المتكلم نـوع اشـتغال بـالعلم الشرـعي لكـن يفتقد أدوات الفهم الصحيح للنص ، وهذا ما ينطبق على كثير مـن أصحاب القراءة العضين .

ولو استخلصنا أهم صـفات الخـوارج التـي وصـفوا بهـا في الأحاديث .

وجدنا أبرز هذه الصفات الجهل الشديد مع أن معهـم علـما ، وذلك راجع إلى سببين :

١ - اهتمام بالحفظ دون الفهم ، مع أن الحفـظ وسـيلة والفهـم غاية ، فهـم وإن حفظـوا حـروف القـرآن ؛ فقـد جهلـوا معناه، وتفسيره ، ومقاصده، لذا كانوا شديدي الجهل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المفسرة للقرآن .

---

(١) مداواة النفوس (١ / ٢٣).

٢- اغترار بهذا الحفظ الذي معهم ، وظنهم أنهم به قد بلغوا في العلم المبلغ الكامل ؛ فاستغنوا به عن العلماء ، وازدروهم.

وهذا ما أشار إليه الحديث بقوله :

« يقرأون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَلَاقِيمَهُمْ »

وقوله : «يقرأون الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لهم وهو عليهم »(١)

قال ابن عبد البر : «وأما قوله يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم فمعناه أنهم لم ينتفعوا بقراءته إذ تأولوه على غير سبيل السنة المبينة له وإنما حملهم على جهل السنة ومعاداتها وتكفيرهم السلف ومن سلك سبيلهم وردهم لشهاداتهم ورواياتهم تأولوا القرآن بآرائهم فضلوا وأضلوا فلم ينتفعوا به ولا حصلوا من تلاوته إلا على ما يحصل عليه الماضغ الذي يبلع ولا يجاوز ما في فيه من الطعام حنجرته»(٢)

وقد تضمن كلام ابن عبد البر الإشارة إلى أبعض أسباب القراءة العضين وهي :غياب الآليات الصحيحة لفهم النص .

- فهم القرآن بمعزل عن السنة ، مع أن السنة هي الشارحة للقرآن والمبين له ، فإذا افتُعلت بينهما الخصومة فكيف سيفهم هذا القارئ القرآن فهما صحيحا .

---

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٤٨ ، رقم ١٠٦٦) ، وأبو داود (٤/٢٤٤ ، رقم ٤٧٦٨) . وأخرجه أيضًا : البزار (٢/١٩٧ ، رقم ٥٨١) .

(٢) الاستذكار - (١ / ١٣٠٦)

- إساءة الظن بأهل العلم فيعرضوا عن أخذ العلم عنهم ، واعتماد القارئ الجاهل للنص على فهمه الذي لم يتبع به طرق الفهم الصحيحة للنص فيضل في فهمه لا محالة لفقد آلية الفهم الصحيحة للنص .

قال ابن حزم مبينا جهل الخوارج: « أسلاف الخوارج كانوا أعرابا قرؤا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمر ولا أصحاب علي ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبي موسى ولا أصحاب معاذ بن جبل ولا أصحاب أبي الدرداء ولا أصحاب سلمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها فظهر ضعف القوم وقوة جهلهم .. » (١)

فينتج عن هذه الحالة أن تتعارض عند القارئ الجاهل الذي لم يتبع في قراءته آليات صحيحة لفهم النصوص ويضرب بعضها ببعض فيقع في الحيرة ، أو يأخذ بعضا منها ويترك البعض الآخر فيقع في التعضية للنص .

وقد حذر النبي من ضرب النصوص بعضها ببعض، وأن علينا العمل بما علمنا، ورد ما لم نعلم إلى العلماء الراسخين، كما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (لقد جلست أنا وأخي

---

(١) الفصل (٤ / ١٢١) .

مجلسًا ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: مهلًا يا قوم! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه)(١).

لكن أهل الأهواء والافتراق لم يردوه إلى العلماء الراسخين، وحكّموا أهواءهم بغير علم ولا هدى، وأعملوا عقولهم في النصوص الشرعية وتركوا نصوصًا أخرى تحكمًا بغير دليل ولا برهان.

ثانيا : من أسباب القراءة العضين :الإعراض عن فهم السلف الصالح ومن المقرر عند أهل السنة والجماعة أن فهم السلف مقدم على غيرهم لقربهم من مصدر التلقي وتوفر الشروط اللازمة لفهم النص من العلم باللغة التي نزل بها الوحي ، وإدراكهم للوقائع والأحوال والسياقات التي تنزل فيها النص،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٤/١١). وقال الشيخ الألباني إسناده حسن السلسلة الصحيحة - (٤ / ٩٦).

ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة وسعة ، وإذا أجمع الصحابة على مسألة لم يسع من بعدهم الخلاف فيها .

وقد بين الشاطبي ذلك فقال :" وهم قدوة الأمة باتفاق المسلمين وروى أن الحسن كان في مجلس فذكر في أصحاب محمد (ﷺ) فقال إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه (صلى الله عليه وسلم) فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم - ورب الكعبة - على الهدى المستقيم وعن حذيفة انه كان يقول اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم فلعمرى لئن اتبعتموه لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن تركتموه يمينا أو شمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا .

وعن ابن مسعود من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما واقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها خلالا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم والآثار في هذا المعنى كثيرة جميعها يدل على الاقتداء بهم والاتباع لطريقهم على كل حال وهو طريق النجاة حسبما نبه عليه حديث الفرق في قوله ما أنا عليه واصحابي(١)

---

(١) الاعتصام. للشاطبى - (٢ / ٣٣٦)

وقد تنبه ابن حزم إلى أن من أسباب ضلال الخوارج إعراضهم عن فهم السلف للنص . فقال:

«ثم أعماهم الشيطان وأضلهم الله تعالى على علم فحال بينهم وبين مثل علي ، وأعرضوا عن مثل سعيد بن زيد وسعد وابن عمر وغيرهم ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل ، وأعرضوا عن سائر الصحابة الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، ووعدهم الله الحسنى وتركوا من يقرون بأن الله تعالى عز وجل علم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ورضي عنهم وبايعوا الله وتركوا جميع الصحابة وهم الأشداء على الكفار الرحماء بينهم الركع السجد المبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود المثني عليهم في التوراة والإنجيل من عند الله عز وجل الذين وأغاظ الله بهم الكفار المقطوع على أن باطنهم في الخير كظاهرهم لأن الله عز وجل شهد بذلك فلم يبايعوا أحدا منهم وبايعوا شيث بن ربعي مؤذن سجاح أيام ادعت النبوة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى تداركه الله عز وجل ففر عنهم وتبين له ضلالتهم فلم يقع اختيارهم إلا على عبد الله بن وهب الراسبي أعرابي بوال على عقبية لا سابقة له ولا صحبة ولا فقه ولا شهد الله له بخير قط فمن أضل ممن هذه سيرته واختياره ولكن حق لمن كان أحدا يمينه ذو خو يصره الذي بلغه ضعف عقله وقلة دينه إلى تجويره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكمه والإستدارك ورأى نفسه أورع من

رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وهو يقر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وبه اهتدى وبه عرف الدين ولولاه لكان حمارا أو أضل ونعوذ بالله من الخذلان » (١)

ثالثا : من أسباب القراءة العضين القول على الله بغير علم .

وقد كان القول على الله بغير علم شرعي معتبر من أعظم الذنب ، وأشد المحرمات .

يقول ابن القيم: « وقد حَرَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ عليه بِغَيْرِ عِلْمٍ في الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ وَجَعَلَهُ من أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ بَلْ جَعَلَهُ في الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا منها فقال تَعَالَى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاَللَّهِ ما لم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا على اللهَّ ما لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَرَتَّبَ الْمُحَرَّمَاتِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ وَبَدَأَ بِأَسْهَلِهَا وهو الْفَوَاحِشُ ثُمَّ ثَنَّى بِمَا هو أَشَدُّ تَحْرِيمًا منه وهو الْإِثْمُ وَالظُّلْمُ ثُمَّ ثَلَّثَ بِمَا هو أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْهُمَا وهو الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ رَبَّعَ بِمَا هو أَشَدُّ تَحْرِيمًا من ذلك كُلِّهِ وهو الْقَوْلُ عليه بِلَا عِلْمٍ وَهَذَا يَعُمُّ الْقَوْلَ عليه سُبْحَانَهُ بِلَا عِلْمٍ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وفي دِينِهِ وَشَرْعِهِ .. » (٢)

وجعله شيخ الإسلام ابن تيمية من الشرائع التي اجتمعت على تحريمها الأنبياء ، ولا تحل بحال من الأحوال حيث قال :

---

(١) الفصل (٤ / ١٢١)

(٢) إعلام الموقعين ج ١ ص ٣٨

« المحرمات قسمان :

أحدهما ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئا لا لضرورة ولا لغير ضرورة كالشرك والفواحش والقول على الله بغير علم والظلم المحض وهي الأربعة المذكورة في قوله تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ولم يبح منها شيئا قط ولا في حال من الأحوال ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية .. »[1]

وقد بين الشاطبي رحمه الله أن البدعة لا تأتي أبدا من قبل عالم راسخ في العلم ، وإنما تأتي من قبل الجهال أو من هم في حكمهم ، ممن لم يستكملوا أدوات الاجتهاد المعتبرة شرعا .

فقال رحمه الله :

« كل راسخ لا يبتدع أبدا وإنما يقع الابتداع ممن لم يتمكن من العلم الذي ابتدع فيه... فإنما يؤتى الناس من قبل جهالهم الذين يحسبون أنهم علماء وإذا كان كذلك فاجتهاد من اجتهد منهى عنه إذ لم يستكمل شروط الاجتهاد فهو على أصل العمومية ولما كان العامي حراما عليه النظر في الأدله والاستنباط كان المخضرم الذي

---

١) مجموع الفتاوى ج ١٤ ص ٤٧٠

بقي عليه كثير من الجهالات مثله في تحريم الاستنباط والنظر المعمول به فاذا أقدم على محرم عليه كان آثما باطلاق» [1]

رابعا : من أسباب القراءة العضين سوء في القصد .

فصاحب القصد السيئ لا يبحث عن الحق ، بل هو مشغب عليه يتطلب من الشبه ما يلقيه في طريق طالب الحق حتى يصده عن الحق أو يشوهه عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» (٢)

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين: ((صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة)) (٣).

---

(١) الاعتصام ـ للشاطبى (١ / ١٤٥)

(٢) أخرجه البخارى (١٦٥٥/٤، رقم ٤٢٧٣) ، ومسلم (٢٠٥٣/٤، رقم ٢٦٦٥) وأبو داود (١٩٨/٤ ، رقم ٤٥٩٨) ، والترمذى (٢٢٣/٥، رقم ٢٩٩٤) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (١٨/١ ، رقم ٤٧) .

(٣) إعلام الموقعين (٨/١).

وصاحب القصد السيء الذي يحركه هو الهوى، و هو المحرك لأهل البدع، قال الشاطبي:

« الشرع قد دل على أنَّ الهوى هو المتَّبَع الأوَّل في البدع، ودليل الشرع كالتبع في حقهم. ولذلك تجدهم يتأوَّلون كلَّ دليل خالف هواهم، ويتبعون كلَّ شبهة وافقت أغراضهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فأمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تأْوِيلِهِ ﴾ فأثبت لهم الزيغ أوَّلاً، وهو الميل عن الصواب، ثم اتباع المتشابه وهو خلاف المحكم الواضح المعنى.

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تكُونوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلفُوا مِنْ بعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ ﴾ فهذا دليل على مجيء البيان الشافي، وأنَّ التفرق إنَّما حصل من جهة المتفرقين لا من جهة الدليل، فهو إذاً من تلقاء أنفسهم، وهو اتباع الهوى بعينه، والأدلة على هذا كثيرة تشير أو تصرِّح بأنَّ كلَّ مبتدع إنَّما يتبع هواه، وإذا اتبع هواه كان مذموماً وآثماً. كالزائغون إنما يتبعون المتشابه ويتمسكون به ابتغاء للفتنة .(١)

وأهل الأهواء من منهجهم اتبع المتشابه وترك المحكم، قال ابن رجب :

«والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فيضربون كتاب الله بعضه ببعض ، ويردون المحكم ، ويتمسكون بالمتشابه ابتغاء الفتنة ، ويحرفون المحكم عن

---

(١) كتاب الاعتصام - (١ / ٤٥)

مواضعه ، ويعتمدون على شبهات وخيالات لا حقيقة لها ، بل هي من وسواس الشيطان وخيالاته ، يقذفها في القلوب »(١)

قال القرطبي رحمه الله :

«يعني : يتبعونه ويجمعونه طلبا للتشكيك في القرآن ، إضلالا للعوام . . .كما فعلته الزنادقة ، والقرامطة الطاعنون في القرآن» (٢)

وبين ابن تيمية مقاصد هؤلاء الزائغين عن الحق المتبعين للمتشابه فيقول :

« الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب، وهي فتنتها به، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء، بل هذا لأجل الفتنة، وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر؛ (٣) لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة، وهذا كمن يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير، ويقول : ماذا أريد بكذا ؟

---

(١) فتح الباري ـ لابن رجب - (٥ / ١٠٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم - (٢٢ / ٥٥)

(٣) انظر القصة فقد خرجها الدارمي في(المسند) [١/رقم:١٤٤] وعبدالله بن أحمد في (فضائل الصحابة) [١/رقم:٧١٧]، والفسوي في (المعرفة والتاريخ) [٣/ص:٣٩٢] وأبو إسماعيل الأنصاري في (ذم الكلام وأهله) [٤/رقم:٧٠٧]واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) [٤/رقم: ١١٣٦]، والآجري في (الشريعة) [١/رقم:١٥٢، ٥/رقم:٢٠٦٤]، وابن عبد لحكم في(فتوح مصر وأخبارها) [١/ص:٢٩١].وابن عساكر في (تاريخ دمشق) [٢٣/ص: ٤١٢]، وابن الأنباري في (المصاحف) ذكره بسنده القرطبي في (تفسيره) [١٧/ص:٢٩].

وغرضه التشكيك والطعن فيه، ليس غرضه معرفة الحق، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه)(١) ؛ ولهذا { يَتَّبِعُونَ } أي : يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم، مثل المتبع للشيء الذي يتحراه ويقصده . وهذا فعل من قصده الفتنة» (٢)

وقد بين ابن تيمية المسائل التي نهى الشارع عنها في الكتاب والسنة ، والتي إذا اجتنبت كانت سببا في البعد والسلامة من القراءة العضين فقال :

«المسائل التي نهى عنها الكتاب والسنة

منها : القول علي الله بلا علم كقوله تعالي {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف:٣٣] وقوله { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: ٣٦]

ومنها : أن يقال علي الله غير الحق كقول { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ } [الأعراف : ١٦٩] وقوله { لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ } [النساء : ١٧١]

---

(١)أخرجه البخارى (١٦٥٥/٤ ، رقم ٤٢٧٣) ، ومسلم (٢٠٥٣/٤ ، رقم ٢٦٦٥) وأبو داود (١٩٨/٤ ، رقم ٤٥٩٨) ، والترمذى (٢٢٣/٥ ، رقم ٢٩٩٤) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (١٨/١ ، رقم ٤٧) .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥ / ٣٨٩)

ومنهـا : الجـدل بغـير علـم كقولـه تعـالي { هَـاأَنتُمْ هَـؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ } [آل عمـران:٦٦] ومنهـا : الجـدل في الحق بعد ظهوره كقوله تعالي { يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْـدَ مَـا تَبَـيَّنَ } [الأنفال: ٦] ومنها : الجدل بالباطل كقولـه : {وَجَـادَلُوا بِالْبَاطِـلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [غافر : ٥] ومنها : الجدل في آياته كقوله تعـالي {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [غافر:٤] وقوله {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَـاهُمْ كَـبُرَ مَقْتـاً عِنـدَ الله وَعِنـدَ الَّذِينَ آمَنُوا } [غافر : ٣٥] وقـال تعـالى {إِنَّ الَّـذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهَّ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ} [غافر : ٥٦] وقوله { ويعلم الذين يجادلون في آياتنـا مـا لهـم مـن محيص } [الشورى : ٣٥] ونحو ذلك قولـه {وَالَّـذِينَ يُحَـاجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ} [الشورى : ١٦] وقوله {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شَـدِيدُ الْمِحَـالِ} [الرعـد : ١٣] وقوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُـدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [الحج : ٨]

ومن الأمور التي نهي الله عنها في كتابه التفـرق والاخـتلاف كقوله {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعـاً وَلاَ تَفَرَّقُـواْ} ـ إلي قولـه { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّـذِينَ تَفَرَّقُـواْ وَاخْتَلَفُـواْ مِـن بَعْـدِ مَـا جَـاءهُمُ الْبَيِّنَـاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْـيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ } [آل عمران : ١٠٣ـ ١٠٦] قال ابـن عبـاس : تبـيض وجـوه أهـل

السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة[1] وقال تعالي : {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ } ـ إلي قوله {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً } [الروم : ٣٠ – ٣٢]

وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله تعالى {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ} [آل عمران:١٩] وفي مثل قوله تعالى : {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود : ١١٩] وفي مثل قوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة : ١٧٦]

وكذلك سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم توافق كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي وري مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده [أن رسول الله صلي الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول : ألم يقل الله كذا؟ ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال : أبهذا أمرتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا

(١) أثر تالف أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (آل عمران :١١٣٩) ولخطيب في تاريخ بغداد (٣٧٩/٧) واللالكائى في ((شرح السنة)) (٧٢/١) والسهمي في ((تاريخ جرجان)) (ص١٣٢- ١٣٣) جميعهم بأسانيد واهية انظر " تكميل النفع " (ص ٥٥ - ٥٧) لشيخ محمد عمرو عبد اللطيف رحمه الله .

كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه] هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله : [المراء في القرآن كفر] وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين [عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلي الله عليه وسلم قرأ قوله { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله } فقال النبي صلي الله عليه وسلم : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم] »(١)

خامسا: ومن أهم أسباب القراءة العضين: الشبهات العقلية السابقة لقراءة النصوص الشرعية، وإن كنت أخرت هذا السبب فلأهميته البالغة، ذلك أن الشبهات العقلية تجعل أصحابها من أهل الافتراق ينحازون إلى بعض النصوص الشرعية بدعوى أن دلالتها على معتقدهم صحيحة وراجحة، أما النصوص الأخرى فيهملونها وينصرفون عنها ويتأولونها وفق أهوائهم، فما الحامل للخوارج إلى الاستناد والاستدلال إلى نصوص بعينها وادعوا أن فيها دلالة على التكفير بالمعاصي، وما الحامل للمرجئة إلى الاستناد والاستدلال إلى نصوص بعينها ادعوا أن فيها إخراج العمل عن مسمى الإيمان، وما الحامل للجبرية أو القدرية إلى الاستدلال

---

(١) درء تعارض العقل والنقل - (١ / ٢٩)

بنصوص تذهب كل طائفة إلى نقيضها، وهكذا في الصفات وسائر مسائل الاعتقاد.

إن الحامل والدافع لهؤلاء جميعا هي هذه الشبهات العقلية التي انقدحت واستقرت في قلوبهم ولم يستطيعوا دفعها، انطلاقا من مبدأ الغلو في تعظيم العقل، وجعله حاكما وفيصلا فيما يثبت وينفى من الشرع، فإن أهل الأهواء والبدع جعلوا من قواعد مذهبهم وجوب التأويل لكل نص يتعارض ظاهره مع العقل بزعمهم، فهم حين ينظرون في نصوص الشرع يجعلون نظرهم عقلياً بحتًا، فما وافق عقولهم من تلك النصوص قبلوه، لا لأن الشرع أتى به فحسب، بل لأنه وافق عقولهم، وما خالف عقولهم فإما أن يبطلوه، وإما أن يؤولوه، أو يفوضوا معناه (١)

نعم إن الدافع الحقيقي لأهل الأهواء والبدع للتلاعب بالنصوص الشرعية تأويلا أو إعراضا عنها بعدم الجمع بينها والاكتفاء ببعضها دون بعض هو هذه الشبهة العقلية الفاسدة التي أصلوها ولأجلها أولوا النصوص الشرعية، يقول ابن القيم رحمه الله: " وحقيقة الأمر أن كل طائفة تتأول ما يخالف نحلتها ومذهبها، فالعيار على ما يتأول ومالا يتأول هو المذهب الذي ذهبت إليه، والقواعد التي أصلتها، فما وافقها أقروه ولم يتأولوه، وما خالفها فإن أمكنهم دفعه وإلا تأولوه.

---

(١) انظر : معارج الوصول لشيخ الإسلام ص ٤ ، منهج التأويل في الفكر الصوفي ص ٤٣

ولهذا لما أصَّلت الرافضة عداوة الصحابة ردوا كل ما جاء في فضائلهم والثناء عليهم، أو تأولوه.

ولما أصَّلت الجهمية أن الله لا يتكلم، ولا يكلم أحدًا، ولا يُرى بالأبصار، ولا هو فوق عرشه مباين لخلقه، ولا له صفة تقوم به أولو كل ما خَالف مَا أَصلوه.

ولما أصَّلت القدرية أن الله سبحانه لم يخلق أفعال عباده، ولم يقدرها عليهم، أولو كل ما خالف اصولهم.

ولما أصَّلت المعتزلة القول بنفوذ الوعيد، وأن من دخل النار لم يخرج منها أبدًا أولو كل ما خالف أصولهم.

ولما أصَّلت المرجئة أن الإيمان هو المعرفة، وأنها لاتزيد ولا تنقص، أولو ما خالف نصوصهم.

ولما أصَّلت الكُلابية أن الله سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته، وسمو ذلك حلول الحوادث، أولو كل ما خالف هذا الأصل.

ولما أصلت الجبرية أن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل بوجه من والوجوب، وأن حركات العباد بمنزلة هبوب الريح، وحركات الأشجار، أولو كل ما جاء بخلاف ذلك.

فهذا في الحقيقة هو عيار التأويل عند الفرق كلها ..." (٢)

---

(٢) الصواعق المرسلة ١ / ٢٣٠ – ٢٣٢

هذه هي أبرز أسباب القراءة العضين ولا أدعي الحصر فالأسباب كثيرة، ولكن كانت الإشارة إلى أهمها، وفيما يلي ذكر آثار القراءة العضين على الأمة .

المبحث الثالث
آثار القراءة العضين

إن القراءة العضين لا بد أن تـترك بصـمتها وأثرهـا البـالغ في الدين وأهله ، حيث نتج عنهأ آثارٌ سيئة سواء على مسـتوى الـدين أو المتدينين . فبدل أن يكون الدين سببا سعادة وهداية للمتدينين ، صار بسب التحريف الذي أنتجته القـراءة العضـين سـبب شـقاء وضلال ، وبدل أن يكون سبب وحـدة الأمـة ، وفلاحهـا أنتجـت القراءة العضين ضد ذلك . فلقد عانت الأمة عبر تاريخهـا الطويـل من جراء القراءة العضين ما شتت وحدتها، وفرق شملها، وأعـاق نهضتها، وكان سببًا في وقوع العداوة والبغضاء بين أبنائها، وساهم في هزيمتها وفشلها وذهاب قوتها وريحها، وجعلها تنقسم إلى شـيع وطوائف وأحزاب يعادي بعضهم بعضًا، كل هذه الآثـار الخطـيرة نتجت عن التفرق في الدين والقراءة العضين.

وقد ذكـر الله جـل وعـلا الآثـار المترتبـة عـلى قـراءة اليهـود والنصارى كتبهم قراءة عضين .

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِـهِم مِّيثَـاقَهُمْ لَعنَّـاهُمْ وَجَعَلْنَـا قُلُـوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُـواْ حَظًّـا مِّمَّـا ذُكِّـرُواْ بِـهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ

اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة المائدة:١٣].

قال السعدي مبينا هذه العقوبات :

" أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات: الأولى: أنا { لَعَنَّاهُمْ } أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: { وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً } أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى، والخير إلا شرا.

الثالثة: أنهم { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ } أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم { نسوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ } فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظا منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد

ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التـي { لا تَـزَالُ تَطَّلِـعُ عَـلَى خَائِنَـةٍ مِّنْهُمْ } أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] مـن يعظهـم ويحسـن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كـان لـه نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسـيان حـظ ممـا ذُكِّـر بـه، وأنـه لا بـد أن يبـتلى بالخيانة، نسأل الله العافية." (١).

وأود التأكيد على أن هذا المعنى الذي أشار إليـه ابـن سـعدي وهو أن هذه العقوبات التي ذكرها الله تعالى لأهل الكتـاب ليسـت خاصة بهم ، بل كل من وقع في هذه القراءة العضين ونسي حظا مما جـاء بـه الـدين حلـت بـه العقوبـات التـي وقعـت عـلى اليهـود والنصارى ، وتاريخ الفرق خير شاهد عـلى هـذه الآثـار الخطـيرة، وهذه الآية الكريمة ذكرت هذه الآثار إجمالا وفيما يلي تفصيل لها .

ثانيا: الشقاق بين أهل الافتراق:

من آثار قراءة العضين المشاهدة والمعلومة لكل متتبـع لتـاريخ

---

(١)تفسير السعدي - (١ / ٢٢٥)

الفرق والافتراق هو ذلك الشقاق الذي يقع بين أهل الافتراق، حيث نجد أن أصحاب هذه الفرق تقع بينهم الفرقة، مما يؤدي بهم إلى إطلاق الأحكام بالتبديع والتفسيق والتكفير، حتى وقع بينهم القتل والتسرع في استحلال الدماء والأعراض.

وقد وصف الله تعالى المفارقين للحق بأنهم في شقاق، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة البقرة:١٧٦] .

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة:١٣٧].

وقال عز وجل عن الكافرين: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [سورة ص:٢].

ووصف أهل البدع أصحاب القلوب المريضة بأنهم واقعون في الشقاق فقال سبحانه: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة الحج:٥٣].

وقد توعد الله سبحانه وتعالى أصحاب منهج الشقاق بوعيد شديد لمفارقتهم منهج الرسول ﷺ والأمة من بعده فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء:١١٥] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٥٩] .

وفي قوله: { فَرَّقُواْ } قراءتان: قراءة: (فَارَقُوا)، وقراءة: (فَرَّقُواْ)، والقراءتان متفقتا المعنى غير مختلفتيه، وذلك أن كل ضال فلدينه مفارق، وقد فرق الأحزاب دين الله الذي ارتضاه لعباده، فتهود بعض وتنصر آخرون، وتمجس بعض، وذلك هو التفريق بعينه، ومصير أهله شيعًا متفرقين غير مجتمعين، فهد لدين الله الحق مفارقون وله مفرقون(١).

وهؤلاء الذين فارقوا دينهم المراد بهم اليهود والنصارى والمشركون، ويشمل أهل البدع من هذه الأمة الذين اتبعوا متشابه القرآن دون محكمه (٢).

ثالثا: وقوع العداوة والبغضاء :

ومن أبرز آثار القراءة العضين تفريق الدين وعدم الأخذ به كله، وقوع العدواة والبغضاء، وهذه سنة من سنن الله تعالى مع الأمم السابقة حين تترك بعضًا من دينها وتأخذ البعض الآخر في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٧/٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧٧/٨)، وتفسير القرطبي (٩٧/٧).

انتقائية مبنية على الهوى وحظوظ النفس، وقد أخبر الله تعالى في كتابه الحكيم عن من قام بترك بعض دينه فابتلاهم بالعدواة والبغضاء وجزاءً وفاقًا. قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة:١٤] .

وقد حذر سلفنا الصالح من منهج أهل الشقاق لما يؤدي إليه من عداوة وبغضاء.

قال أبو العالية الرياحي: (تعلموا الإسلام فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم الإسلام، ولا تنحرفوا عن الصراط المستقيم يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين أهلها العدواة والبغضاء) (١).

ويجلي الإمام الشاطبي هذه المسألة فيقول: ((لهم ــ أي: أهل الافتراق ــ خواص وعلامات يعرفون بها... إحداهما: الفرق التي نبّه عليها قوله تعالى:﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران:١٠٥] .

---

(١) انظر: الإبانة لابن بنطة (٣٣٨/١)، تحقيق رضا معطي نعسان.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة: ١٤].

قال بعض العلماء: صاروا فرقًا لاتباع أهوائهم، وبمفارقة الدين تشتت أهواؤهم فافترقوا، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩]. هم أصحاب البدع وأصحاب الضلالات والكلام فيما لم يأذن الله فيه ولا رسوله.

قال: ووجدنا أصحاب رسول الله ﷺ من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين ولم يتفرقوا، ولا صاروا شيعًا لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد إلى الرأي، والاستنباط من الكتاب والسنة فيما لم يجدوا فيه نصًّا، واختلف في ذلك أقوالهم فصاروا محمودين لأنهم اجتهدوا فيما أمروا به...

ومع اختلافهم كانوا أهل مودة وتناصح، وأخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فلما حدثت الأهواء المردية التي حذر منها رسول الله ﷺ، وظهرت العداوات وتحزب أهلها فصاروا شيعًا، دلّ على أنه إنما حدث ذلك من المسائل المحدثة التي ألقاها الشيطان على أفواه أوليائه.

فكل مسألة حدثت في الإسلام واختلف الناس فيها، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة، علمنا

أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة حدثت وطرأت فأوجبت العدواة والبغضاء والتدابر والقطيعة، علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء)) (١).

وما أحسنه من ضابط، فلقد اختلف الصحابة اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، بينما من جاء بعدهم اختلفوا اختلاف تفرق وتضاد أورثهم العداوة والبغضاء لمخالفتهم ما أمرهم الله تعالى به ورسوله ﷺ.

قال ابن تيمية: ((فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب)) (٢).

وأهل الشقاق والافتراق يعتقدون الاعتقادات الباطلة ويكفرون من خالفهم بشبهات ومغالطات غير مقبولة شرعا وعقلا .

قال ابن تيمية: «وصار كثير من أهل البدع مثل الخوارج والروافض والقدرية والجهمية والممثلة يعتقدون اعتقادا هو ضلال يرونه هو الحق ويرون كفر من خالفهم في ذلك فيصير فيهم شوب قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفر ب » المقالة « التي لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها ».(٣)

---

(١) الاعتصام (٢/٢٣٢).

(٢) الفتاوى (٣/٢٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى ١٢/٤٦٧

قال الشافعي : «لأن أتكلم في علم يقال لي فيه أخطأت أحب إلي من أن أتكلم في علم يقال لي فيه كفرت» فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون..»(١)

ويؤكد هذا المعنى البغدادي قبل ابن تيمية فيقول :

« أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشبهة... يكفر بعضهم بعضا» (٢)

ويبين الإمام الشاطبي كيف يوقع أهل الفرقة بتفرقهم العداوة والبغضاء في الأمة فيقول: ((وقد بين عليه الصلاة والسلام أن فساد ذات البين هي الحالقة، وأنها تحلق الدين، هذه الشواهد تدل على وقوع الافتراق والعدواة عند وقوع الابتداع، وأول شاهد عليه في الواقع قصة الخوارج إذ عادوا أهل الإسلام حتى صاروا يقتلونهم، ويدعون الكفار كما أخبر عنه الحديث الصحيح، ثم يليهم كل من كان له صولة منهم بقرب الملوك، فإنهم تناولوا أهل السنة بكل نكال وعذاب وقتل أيضًا، حسبما بينه جميع أهل الأخبار.

ثم يليهم كل من ابتدا بدعة فإن من شأنهم أن يثبطوا الناس عن اتباع الشريعة، ويذمونهم ويزعمون أنهم الأرجاس الأنجاس

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥ / ٢٥١)

(٢) الفرق بين الفرق (١ / ٧)

المكبين على الدنيا، ويضعون عليهم شواهد الآيات في ذم الدنيا وذم المكبين عليها، كما يروى عن عمرو بن عبيد أنه قال: (لو شهد عندي علي وعثمان وطلحة والزبير على شراك نعل ما أجزت شهادتهم).

وقيل له: كيف حدث الحسن عن سمرة في السكتتين؟ فقال: (ما تصنع بسمرة، قبح الله سمرة) بل قبح الله عمرو بن عبيد.

فهكذا أهل الضلال يسبون السلف الصالح لعل بضاعتهم تنفق، {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة التوبة:٣٢].

وأصل هذا الفساد من قبل الخوارج فهم أول من لعن السلف الصالح، وكفر الصحابة رضي الله عن الصحابة، ومثل هذا كله يورث العدواة والبغضاء)) (١).

وهذا واقع مشاهد في عصرنا الحاضر، حيث نجد الجفاء والعدواة والبغضاء بين أهل الأهواء والافتراق، ووسائل الإعلام اليوم أظهرت هذه العدواة بشكل صاخب وصارخ، ونجد ما كان بالأمس مسطورًا في الكتب نجده منظورًا عبر القنوات الفضائية، فهذه الحوارات الساخنة التي يؤدي معظمها إلى السب والشتم

---

(١) الاعتصام (١/١١٩).

بأقذع الألفاظ النابية، بل يفقد بعضهم السيطرة على نفسه، وتمتد يده على محاوره بالضرب دون مراعاة لآداب الحوار والمناظرة.

رابعا : كثرة الفرق وكثرة انقسامها في داخل الفرقة الواحدة:

إن الحق واحد في نفسه لا يتعدد، ولذلك حين بيّن رسول الله ﷺ انقسام هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة حدد أن الناجي منها ((واحدة))، وأوضح منهجها ووصفها بأنها ((ما أنا عليه وأصحابي)) .

أما بقية الفرق الأخرى فهي تتوالد تفرقًا وانقسامًا ، وقد نص النبيﷺ في حديث الافتراق المشهور على تفرق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (افترقت اليهود على إحدى ــ أو ثنتين ــ وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى ــ أو ثنتين ــ وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) (١).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن العدد الوارد في الحديث غير

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) وقال عنه: حديث حسن صحيح.
قال ابن تيمية: ((وهذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وسعد ومعاوية وعمرو بن عوف وغيرهم)). اقتضاء الصراط المستقيم (١١٦/١).
وقال أيضًا: ((وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة)) . اقتضاء الصراط المستقيم (١٢٢/١).
ويقول الألباني رحمه الله بعد ذكره لروايات الحديث: ((فقد تبين بوضوح أن الحديث ثابت لا شك فيه، ولذلك تتابع العلماء خلفاً عن سلف على الاحتجاج به)) . السلسلة الصحيحة (٤٠٨/١).

مرادٍ لذاته، بل المراد منه التكثير لا الحصر، والمعنى أن هذه الأمة ستفترق فرقًا كثيرة وتزيد في التفرق عن اليهود والنصارى (١) .

وذهب آخرون في ذلك مذاهب شتى واختلفت فيه أقوالهم.

يقول الإمام أبو بكر الطرطوشي بعد أن ذكر حديث الافتراق: ((واعلم أن هذا الحديث قد طاشت فيه أحلام الخلق، وفي معرفة هذه الفرق وهل كملوا بعد أم لا؟)) (٢) .

ويبين الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي أن معرفتنا قاصرة على معرفة الافتراق وأصوله، دون الإحاطة بالأسماء فيقول: ((إنا نعرف الافتراق وأصول الفرق، وإن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق، وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها))(٣).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرق الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم)) (٤).

والمقصود هنا بيان كثرة هذه الفرق وكثرة انقسامها، وأن هذا التفرق إنما ينشأ في حال الضعف لا القوة، وفي حال الفرقة والاختلاف لا في حال الجماعة والائتلاف، وقد أخبرنا الصادق

---

(١) انظر: أصول الدين للبزدوي (ص٢٦٢)، الفرق الإسلامية، مزروعة (ص٣١).

(٢) كتاب الحوادث والبدع (ص٣٣).

(٣) تلبس إبليس (ص٢٨).

(٤) الفتاوى (٢١٥/٣)، وانظر: الموافقات للشاطبي (٥٤٤/٤)، والاعتصام له (ص١٨١).

المصدوق ﷺ عن الخوارج (أنهم يخرجون في فرقة من الناس)(١).
وبالفعل لم يخرج الخوارج إلا حين دبت بـذور الفتنـة والاخـتلاف بين الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين.

بـل إن الخـوارج لم يكتفـوا بـأن فـارقوا جماعـة المسـلمين وخالفوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم بغير حق، بل إنهم كـذلك افترقوا إلى فرق شتى يقاتل بعضها بعضًا، ويكفـر بعضـهم بعضًـا، وهكذا هو دأب أهل الافتراق؛ لأنهم نشأوا أو شـبّوا عليـه، ومـن شبّ على شيء شاب عليه.

بينما أهل السنة والجماعة هم أهل وحدة واتفاق على الحـق، لا ينقسمون ولا يتجزأون، ولا يعادي ويقاتل بعضهم بعضًا، أو يكفر بعضهم بعضًا. كما يفعل أهل الافتراق والأهواء والبدع.

قال البغدادي :

«ثم اختلفت الخوارج بعد ذلـك فـيما بينهـا فصـارت مقـدار عشرين فرقة كل واحدة تكفر سائرها »

«ثم افترقـت الرافضـة بعـد زمـان عـلي رضي الله عنـه اربعـة اصناف زيدية وإماميـة وكيسـانية وغـلاة وافترقـت الزيديـة فرقـا والامامية فرقا والغلاة فرقا كل فرقة منها تكفر سائرها»

« واما القدرية المعتزلة عن الحق فقد افترقت عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها »(٢)

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.
(٢) الفرق بين الفرق (١ / ١٨)

وقد أخبر ﷺ بأن هذا الافتراق واقع لا محالة، كما في قوله ﷺ: (سألت ربي ثلاثًا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها)(١).

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : أَعُوذُ بِوَجْهِكَ قَالَ {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} قَالَ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : هَذَا أَهْوَنُ ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ .(٢).

قال علي بن خلف بن بطال رحمه الله: ((أجاب الله دعاء نبيه في عدم استئصال أمته بالعذاب، ولم يجبه في أن لا يلبسهم شيعًا، أي: فرقًا مختلفين، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، أي: بالحرب والقتل بسبب ذلك، وإن كان ذلك من عذاب الله، لكنه أخفّ من الاستئصال، وفيه للمؤمنين كفارة)) (٣).

ويقول عبد الله بن عباس في قوله تعالى:"أو يلبسكم شيعًا" ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

(٢) أخرجه. وأحمد (٣٠٩/٣). و«البخاري» (١٢٥/٩) و«الترمذي» (٣٠٦٥) والحميدي (١٢٥٩)

(٣) فتح الباري (٢٩٦/١٣).

الأهواء والاختلاف.وقال في قوله: "ويذيق بعضكم بأس بعض"، قال: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب (١).

وهذا نتيجة طبيعية لمن أخذ جانبا من الدين واعتقد أنه هو الدين كله وما سواه ليس من الدين في شيء ، بل هو ضلال عن الدين وزيادة فيه.

رابعا : الهزيمة والفشل:

هناك علاقة طردية بين عزة الأمة ونصرها وائتلافها ووحدتها، وبين هزيمة الأمة وفشلها واختلافها وتفرقها، وهذه سنة من سنن الله تعالى، ولهذا يأمرنا سبحانه وتعالى في كثير من الآيات بالوحدة والائتلاف، ونهانا عن الفرقة والاختلاف، ويحذرنا عز وجل من الفرقة والتنازع، وأنها سبيل الفشل وذهاب الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦] .

ومعنى الآية: أيها المؤمنون أطيعوا ربَّكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء "ولا تنازعوا فتفشلوا"، يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم "فتفشلوا"، يقول: فتضعفوا وتجبنوا، "وتذهب ريحكم" وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢/٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/١٠)، زاد المسير لابن الجوزي (٣٦٥/٣)، تفسير ابن كثير (٣٠٣/٢).

لذلك يوصيهم الله عز وجل بالصبر فيقول في ختام الآية {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ } الأنفال : ٤٦ وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والجيوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علَت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم تواب (١).

ولقد أدرك ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه خطر الافتراق على الأمة وحذر الذين حاصروه ليقتلوه ونبههم على ضرر الفرقة في تفريق الأمة فقال: (يا أيها الناس لا تقتلوني واستتيبوني، فوالله لئن قتلتموني لا تصلون جميعًا أبدًا، ولا تجاهدون عدوًا جميعًا أبدًا، ولتختلفن حتى تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه) (٢).

ولما قتل عثمان قال حذيفة بن اليمان: (والله لئن كان قتله خيرًا

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٠٣).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٧١).

ليحلبنها لبنًا، ولئن كان قتله شرًا ليمتصن بها دمًا) (١).

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه يوم قتل عثمان: (اليوم هلكت العرب) (٢).

وقال: (والله لا تهرقون محجمًا من دم إلا ازددتم من الله بعدًا)(٣).

وحقًّا لقد تجرعت الأمة ألم الفرقة، وسالت الدماء بقتل عثمان رضي الله عنه حيث ثارت الفتن وبدأ القتال يفتك في الأمة، فجاءت وقعة الجمل، وأعقبتها صفين، وقتل من المسلمين خلق كثير، فقتل في الجمل قرابة العشرين ألفًا، وفي صفين سبعون ألفًا(٤).

ولا تزال الأمة تتوالى عليها الحروب والنكبات إلى يومنا هذا.

والمتتبع لتاريخ الإسلام ــ قوة وضعفًا ــ يجد هذا الأثر البالغ للتفرق في الدين، فالصحابة رضوان الله عليهم حين أخذوا هذا الدين بشموليته ولم يأخذوا ببعضه دون بعض، نصرهم الله تعالى نصرًا مبينًا، وكذلك كانت الخيرية في القرون الثلاثة المفضلة، ودبّ الضعف فيمن بعدهم بسبب تفريطهم في هذا الدين القيم وافتراقهم شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وكلما قوي أهل التفرق والبدع كان ضررهم على دولة الإسلام وعزتها ونصرها بالغًا وخطيرًا.

يقول ابن تيمية: ((وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوي

---

(١) انظر: المرجع السابق (٣/٨٣).

(٢) انظر: المرجع السابق (٣/٨١).

(٣) انظر: المرجع السابق (٣/٨١).

(٤) انظر: تاريخ خليفة بن خياط (ص١٨٦- ١٩٤).

كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك، مثل دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان، ويغزوا أعداءه من الكفار والمنافقين، كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر، وأهل البدع أذل وأقل...

وفي دولة أبي العباس المأمون ظهر الخرمية ونحوهم من المنافقين، وعُرِّبَ من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهنود ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة.

فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين، وقوي ما قوي من حال المشركين وأهل الكتاب، كان من أثر ذلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل الضلال، وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة...

فتولد عن ذلك محنة الجهمية حتى امتحنت الأمة بنفي الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى مما يطول وصفه (١).

ويبين ابن تيمة رحمه الله أن تسلط الأعداء من الكفار على الأمة يكون حينما تتفرق وتختلف فيقول: ((وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب

---

(١) الفتاوى (١٨/٤- ١٩) باختصار.

وغيرها)) (١).

ويقول: ((وفي دولة بني بويه ونحوهم كان منهم أصناف المذاهب المذمومة، قوم منهم زنادقة، ومنهم قرامطة كثيرة، ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة، وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم، فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف، حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام، وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والشرق وغير ذلك، وجرت حوادث كثيرة)) (٢).

ويقول معللًا هذا التسليط: ((وهذا التفرق الذي حصل من الأمة ــ علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها ــ هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة:١٤])) (٣).

وواقنا المعاصر خير شاهد على هذا الفشل الذريع من جراء فشو الاختلاف والتنازع بين كل دولة وأخرى، بل في داخل كل دولة فرقًا وشيعًا يعادي بعضهم بعضًا!!.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/١٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٢٥٨).

قال ابن حزم مبينًا الأثر السيء للفرق الضالة على الأمة: «واعلموا رحمكم الله أن جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيرا ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية ولا رفع للإسلام راية وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين ويفرقون كلمة المؤمنين ويسلون السيف على أهل الدين ويسعون في الأرض مفسدين ... فالله الله أيها المسلمون تحفظوا بدينكم ونحن نجمع لكم بعون الله تعالى الكلام في ذلك الزموا القرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم وما مضى عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون وأصحاب الحديث عصرا عصرا الذين طلبوا الأثر فالزموا الأثر ودعوا كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار وبالله تعالى التوفيق»(١)

هذه بعض الآثار المترتبة على القراءة العضين وسيأتي ذكر نماذج لهذه القراءة المنحرفة لتكون مثالا وشاهدا على هذا الخلل في فهم النصوص الشرعية .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل - (٤ / ١٧١)

المبحث الرابع

نماذج من القراءة العضين

كل فرقة من الفرق الإسلامية تعد نموذجا على القراءة العضين ؛ ذلك أنك تجد هذه الفرق أخذت جانبًا أو جزءًا من النصوص الشرعية وأهملت جوانب أخرى ،والشواهد على ذلك كثيرة جدا.سأذكر على سبيل الاختصار أربعة نماذج منها .

أولا: الخوارج[1] وبدأنا بالخوارج لأنهم أول الفرق ظهورا في الإسلام، ولتحذير النصوص منهم ومن بدعتهم ، ولظهور مخالفتها للقراءة الشاملة للدين .

قال ابن تيمية :

« لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة فلما قتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان بدعة الخوارج المكفرين لعلي وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته أو نبوته أو إلاهيته

ثم لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبدالملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية .

---

(١) الخوارج: اسم أطلق على أولئك الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عقب معركة صفين وقبوله التحكيم، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما كما أجمعوا – عدا النجدات منهم – على تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار إذا مات مصراً عليها، انظر: مقالات الإسلاميين (١٦٧/١، ١٦٨، الفرق بين الفرق ص ٧٢- ٧٤) .

ثم لما كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية والمشبهة الممثلة ولم يكن علي عهد الصحابة شيء من ذلك »(١)

وقد استند الخوارج على بعض النصوص الشرعية لتصحيح مذهبهم ، وقد أورد ابن حزم جملة من هذه الأدلة فقال رحمه الله:

« قال أبو محمد واحتج كفر من المذنبين بقول الله عز و جل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُون ﴾ ، وبقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلا الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فصح أن من لم يكذب ولا تولى ألا يصلاها قالوا ووجدنا هؤلاء كلهم لم يكذبوا ولا تولوا بل هم مصدقون معترفون بالإيمان فصح أنهم لا يصلونها وأن المراد بالوعيد المذكور في الآيات المنصوصة إنما هو فعل تلك الأفاعيل من الكفار خاصة

قال أبو محمد واحتج أيضا من كفر من ذكرنا بأحاديث كثيرة منها "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر "(٢)"ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينهب نهبة ذات شر حين

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال - (١ / ٣٨٧)

(٢) أخرجه البخارى (٢٧/١ ، رقم ٤٨)، ومسلم (٨١/١، رقم ٦٤) وأحمد (٣٨٥/١، رقم ٣٦٤٧)، والترمذى (٣٥٣/٤، رقم ١٩٨٣) وقال : حسن صحيح . والنسائى (١٢٢/٧ ، رقم ٤١٠٨)، وابن ماجه (٢٧/١ ، رقم ٦٩) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (٢٦٥/١٣، رقم ٥٩٣٩) ، والحميدى (٥٨/١ ، رقم ١٠٤) .

ينهبها وهو مؤمن"(١) "وترك الصلاة شرك"(٢) "وإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم"(٣) ومثل هذا كثير»(٤)

والآية التي استدل بها الخوارج على كفر المذنبين ليست في المذنبين بل هي في الكافرين .

قال ابن تيمية ـ في الرد على استدلال الخوارج بقوله تعالى :" ﴿فَأَنْذَرتُكم نَارًا تَلَظَى ۝ لاَ يَصلاَهَا إِلاَ الأَشْقَى﴾ الليل: ١٥ – ١٦

« وَقَـدْ ذَكَرَ فِي سُـورَةِ اللَّيْلِ قَوْلَهُ : { فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى } { لَا يَصْلَاهَا إلَّا الْأَشْقَى } { الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } . وَهَذَا الصَّلْيُ قَدْ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ : بِخَطَايَاهُمْ

---

(١) أخرجه البخارى (٢٤٩٧/٦، رقم ٦٤٢٥) ومسلم (٧٧/١، رقم ٥٧) وعبد الرزاق (٤١٦/٧، رقم ١٣٦٨٦)، وأبو داود (٢٢١/٤، رقم ٤٦٨٩)، والترمذى (١٥/٥ ، رقم ٢٦٢٥) وقال : حسن صحيح غريب . من حديث أبي هريرة وأخرجه أيضًا: أحمد (٤٧٩/٢، رقم ١٠٢٢٠) ، ، وابن حبان (٢٦٠/١٠ ، رقم ٤٤١٢) .

(٢) أخرجه "مسلم" ٦٢/١(١٦٠) وأحمد ٣٨٩/٣(١٥٢٥٠ و١٥٢٥٢) و"الدارِمِي" ١٢٣٣

(٣) وأخرجه البخاري "٦٨٣٠" مسلم "١٦٩١"و أخرجه أبوداود "٤٤١٨" ، و ابن أبي شيبة ٥٦٣/١٤- ٥٦٧ و عبد الرزاق "١٣٣٢٩"، ومن طريقه الترمذي "١٤٣٢" ، وأحمد ٤٧/١، عن معمر، وأخرجه ابن أبي شيبة ٧٥/١٠، ٧٦ ، والبيهقي في "السُّنن" ٢١/٨

(٤) وانظر مناقشة هذه الأدلة في المراجع التالية المواقف - (٣ / ٥٤٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل - (٣ / ١٣٠) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل - (١ / ٤٠٩).

فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ . فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ . فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ } . (١)

وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفِيضٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ مُتَوَاتِرٌ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا . وَفِيهَا الرَّدُّ عَلَى طَائِفَتَيْنِ . عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ « إنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يُخَلَّدُونَ فِيهَا » وَهَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ حُكِيَ عَنْهُ مِنْ غُلَاةِ الْمُرْجِئَةِ « أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدٌ » . فَإِنَّ إخْبَارَهُ بِأَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يَخْرُجُونَ مِنْهَا بَعْدَ دُخُولِهَا تَكْذِيبٌ لِهَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ « يَجُوزُ أَنْ لَا يُدْخِلَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدًا النَّارَ » كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُرْجِئَةِ الشِّيعَةِ وَمُرْجِئَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَهُمْ الْوَاقِفَةُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي الْحَسَنِ وَغَيْرِهِمْ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِ . فَإِنَّ النُّصُوصَ الْمُتَوَاتِرَةَ تَقْتَضِي دُخُولَ بَعْضِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَخُرُوجِهِمْ . فَأَمَّا مَنْ دَخَلَ وَخَرَجَ فَإِنَّهُ نَوْعٌ مِنْ الصَّلْيِ

---

١) أخرجه أحمد (١١/٣، رقم ١١٠٩٢)، والدارمى (٤٢٧/٢ ، رقم ٢٨١٧) ، ومسلم (١٧٢/١ ، رقم ١٨٥)، وابن ماجه (١٤٤١/٢، رقم ٤٣٠٩) ، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ٢٨٢) ، وابن حبان (٤١١/١ ، رقم ١٨٤) . وأخرجه أيضًا : أبو يعلى (٥١٨/٢ ، رقم ١٣٧٠) .

لَيْسَ هُوَ الصَّلْيُ الْمُطْلَقُ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ قَدْ مَاتَ فِيهَا وَالنَّارُ لَمْ تَأْكُلْهُ كُلَّهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهَا لَا تَأْكُلُ مَوَاضِعَ السُّجُودِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.»(١)

فانظر كيف فات على الخوارج أن صلي النار الوارد في النصوص الشرعية نوعان ، صلي مطلق لأهل الكفر ، وصلي مقيد لأهل الإسلام ، ولا يقتضي كفر صاحبه ولا خلوده في النار كما دلت عليه النصوص الأخرى ، التي أهملوها وتركوا دلالاتها .

وكذلك النصوص الأخرى التي استدلوا بها على كفر الزاني ، فقد تركوا نصوصا أخرى صريحة في إسلام الزاني كحديث أبي ذر الذي في الإخبار بدخول الموحدين الجنة ، وإن أتوا هذه الكبائر ، والنصوص القرآنية المبينة أن القاتل مسلم كقوله تعالى : ﴿فمن عفي له من أخي شيئ ﴾

فأنت ترى طريقة استدلال الخوارج بالنصوص الشرعية وأنها قائمة على القراءة الجزئية للنص ، فيأخذون النصوص التي تتمشى مع أهوائهم ويدعون غيرها من النصوص .

وقد بين الإمام الشاطبي خطأ الخوارج في استدلالهم ببعض النصوص وسوء فهمهم لها ، ويذكر قاعدة نفيسة بأن كل من ضل عن الصراط المستقيم فبقدر ما فاته من القرآن فهما وعملا ، وكل من أصاب الحق فبقدر فهمه للتنزيل حيث يقول:

---

(١) مجموع الفتاوى - (١٦ / ١٩٤)

«قال الخوارج لعلي: إنه حكم الخلق في دين الله، والله يقول: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ} [الأنعام: ٥٧، ويوسف: ٤٠، ٦٧]. وقالوا: إنه محا نفسه من إمارة المؤمنين؛ فهو إذًا أمير الكافرين.

وقالوا لابن عباس: لا تناظروه؛ فإنه ممن قال الله فيهم: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨]، وكما زعم أهل التشبيه في صفة الباري حين أخذوا بظاهر قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: ١٤]، {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: ٧١]، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ٦٧]، وحكموا مقتضاه بالقياس على المخلوقين؛ فأسرفوا ما شاءوا.

فلو نظر الخوارج أن الله تعالى قد حكم الخلق في دينه في قوله: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ} [المائدة: ٩٥]، وقوله {فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء: ٣٥]، لعلموا أن قوله: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ} [الأنعام: ٥٧] غير مناف لما فعله عليّ، وأنه من جملة حكم الله؛ فإن تحكيم الرجال يرجع به الحكم لله وحده، فكذلك ما كان مثله مما فعله علي.

ولو نظروا إلى محو الاسم من أمر لا يقتضي إثباته لضده؛ لما قالوا: إنه أمير الكافرين، وهكذا المشبهة لو حققت معنى قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] في الآيات المذكورة لفهموا بواطنها، وأن الرب منزه عن سمات المخلوقين.

وعلى الجملة؛ فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم؛ فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهمًا وعلمًا، وكل من أصاب الحق وصادف الصواب؛ فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه. »(١)

هذه بعض الشواهد والأمثلة على النصوص الشرعية التي احتج بها الخوارج، ظاهر فيها منهج التعضية والتجزئة لنصوص هذا الدين ؛ مما كان له أكثر الأثر في ضلالهم وبعدهم عن الصراط المستقيم .

ثانيا ـ المرجئة (٢)

وهي الفرقة المقابلة للخوارج ، فحين نجد أن الخوارج قد تمسكت بنصوص الوعيد ، وتركت نصوص الوعد ، وغلت في جانب العمل وجعلته كله على مرتبة واحدة ، نجد المرجئة على النقيض من ذلك تمسكت بنصوص الوعد وتركت نصوص الوعيد ، وارتكزت على النصوص المبينة لأهمية التوحيد وتركت النصوص الحاثة على العمل الصالح .

---

(١) الموافقات - (٤ / ٢٢٢)

(٢) "المرجئة : أصلها من الإرجاء، وهو التأخير، وسموا بذلك لأنهم يؤخرون العمل عن النية والعقد، وهم أصناف وفرق كثيرة، فمنهم الغالي، ومنهم دون ذلك، ويجمعهم القول بأن الأعمال ليست من الإيمان . "
انظر عن المرجئة: مقالات الإسلاميين: ٢١٣/١- ٢٣٤، الملل والنحل: ١٣٩/١- ١٤٦، الفرق بين الفرق ص٢٠٢- ٢٠٧، التنبيه والرد ص٤٣، التبصير في الدين ص٥٩، البدء والتاريخ: ١٤٤/٥، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص١٠٧، الخطط للمقريزي: ٣٤٩/٢- ٣٥٠.]

قال الملطي : «وقد ذكرت المرجئة في كتابنا هذا أولا وآخرا إذ قولها خارج من التعارف والعقل ، ألا ترى أن منهم من يقول من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وحرم ما حرم الله وأحل ما أحل الله دخل الجنة إذا مات ؛ وإن زنى وإن سرق وقتل وشرب الخمر وقذف المحصنات وترك الصلاة والزكاة والصيام ، إذا كان مقرا بها يسوف التوبة لم يضره وقوعه على الكبائر وتركه للفرائض وركوبه الفواحش ، وإن فعل ذلك استحلالا كان كافرا بالله مشركا وخرج من إيمانه وصار من أهل النار، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وإيمان الملائكة والأنبياء والأمم وعلماء الناس وجهالهم واحد لا يزيد منه شيء على شيء أصلا .

واحتجوا بقول الله عز و جل :{إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فقالوا الكافر وحده لا يغفر له ، وما دون الكفر مغفور لأهله ورووا عن النبي أنه قال : "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وسرق وقتل وأنا أذكر دليل هذا في جزء الحجاج إن شاء الله» [1]

ولا شك أن منشأ هذا الإغراق في نصوص الوعد هو القراءة العضين وعدم جمع النصوص الشرعية وفهمها وفق سياقاتها التي وردت فيها ، وقد شنع ابن حزم على المرجئة والخوارج هذا الفهم السيئ للنصوص الشرعية حيث قال:

---

١ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع - (١ / ٤٣)

«الله قد ذم المعاصي وتوعد عليها قيل لهم فإن المرجئة تقول لكم أن الله تعالى قد حمد الحسنات ووعد عليها وأراد بذلك تغليب الحمد كما أردتم تغليب الذم فإن ذكرتم آيات الوعيد ذكروا آيات الرحمة .

قال أبو محمد وهذا ما لا مخلص للمعتزلة منه ولا للمرجئة أيضا فوضح بهذا أن كلا الطائفتين مخطئة وأن الحق هو جمع كل ما تعلقت به كلتا الطائفتين من النصوص التي في القرآن والسنن ويكفي من هذا كله قول الله عز و جل : " إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى" وقوله تعالى : "اليوم تجزى كل نفس بما كسبت " وقوله تعالى :" فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره "وقال تعالى : "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها" وقال تعالى : "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" فصح بهذا كله أنه لا يخرجه عن إسم الإيمان إلا الكفر ولا يخرجه عن إسم الكفر إلا الإيمان وأن الأعمال حسنها إيمان وقبيحها قبيح ليس إيمانا والموازنة تقضي على كل ذلك ولا يحبط الأعمال إلا الشرك قال تعالى : " لئن أشركت ليحبطن عملك " [1]

---

١) الفصل في الملل والأهواء والنحل - (٣ / ١٣٠)

ثالثا الشيعة (١):

للشيعة حظ وافر من القراءة العضين حيث اعتمدوا على بعض النصوص الشرعية وفهموها فهماً مغلوطا لإثبات الإمامة ، وكثيرا ما يزيدون من عندهم نصوصا مكذوبة، وسأذكر هنا بعضا من النصوص التي يعتمدون عليها في إمامة علي ، وغلوهم في علي رضي الله عنه وفي أهل بيته .

أدلتهم على الغلو في علي رضي الله عنه وذريته ومنها قوله تعالى :

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة، آية: ١٢٤].

قال الطبرسي : «استدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصومًا من القبايح؛ لأنّ الله - سبحانه - نفى أن ينال عهده - الذي هو الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالمًا إمّا لنفسه، وإما لغيره.

---

(١) الشيعة: هم الذين شايعوا علياً- رضي الله عنه - على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده، وقالوا إن الإمامة ركن الدين، وأن الأئمة معصومون من الكبائر والصغائر. والشيعة فرق كثيرة، منهم الغالي الكافر ومنهم دون ذلك .

انظر: مقالات الإسلاميين ٦٥/١ وما بعدها ، الملل والنحل للشهرستاني ١٤٦/١، الفصل في الأهواء والملل والنحل ٢ / ٨٩ .

فإن قيل: إنما نفى أن ينال ظالم في حال ظلمه، فإذا تاب فلا يسمى ظالمًا فيصح أن يناله.

والجواب: أن الظّالم وإن تاب فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالمًا، فإذا نفى أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، والآية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلها، فلا ينالها الظّالم وإن تاب فيما بعد» [1]

ومن أدلة الشيعة في الغلو في علي رضي الله عنه وآل بيته قوله تعالى:

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة، آية: ٥٥.] »

حيث زعموا أنه اتفق المفسرون والمحدثون من العامة والخاصة أنها نزلت في علي لما تصدق بخاتمه على المسكين في الصلاة بمحضر من الصحابة وهو مذكور في الصحاح الستة». [2]

وقولهم: إنها «مذكورة في الصحاح الستة» كذب؛ إذ لا وجود لهذه الرواية في الكتب الستة[وهو من الكذب الذي لا يستحي الشيعة من إثباته، والغريب أن هذا الزعم يجري على ألسنة آياتهم في هذا العصر، فهل يخفى عليهم أن هذا لا وجود له في الكتب الستة؟!.

---

(١) [الطّبرسي/ مجمع البيان: ٢٠١/١، وانظر: الطّوسي/ التّبيان: ٤٤٩/١، المجلسي/ بحار الأنوار: ١٩١/٢٥.].

(٢) [انظر: ابن المطهر الحلي في منهاج الكرامة، حيث اعتبره البرهان الأول (ص:١٤٧)، وشبر في حق اليقين: ١٤٤/١، والزنجاني في عقائد الإمامية الاثني عشرية: ٨١/١- ٨٢.] .

وقد توفرت اليوم الفهارس والمعاجم التي تكشف الحقيقة.[1]

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وجمهور الأمة لم تسمع هذا الخبر ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة لا الصحاح ولا السنن ولا الجوامع ولا المعجمات ولا شيء من الأمهات» [2]

وقد ساق ابن كثير الآثار التي تروى في أن هذه الآية نزلت في علي حين تصدق بخاتمه، وعقب عليها بقوله: «وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها، وجهالة رجالها» [3]

ومن أدلة الشيعة في تفضيل علي رضي الله عنه والغلو فيه: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك، واستخلف عليًّا، فقال: أتخلفني في الصّبيان والنّساء؟ فقال: ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه ليس نبيّ بعدي»[4]

---

١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ومفتاح كنوز السنة، لفظ «علي بن أبي طالب»، وراجع الكتب المعنية بجميع الروايات المتعلقة بتفسير الآيات وسبب نزولها مثل: الدر المنثور[1] وغيره، أو المعنية بجمع روايات الكتب الستة كجامع الأصول فلا تجد لدعواهم أصلاً .

٢) (منهاج السنة: ٤/ ٥) .

٣) [تفسير ابن كثير: ٢/٧٦- ٧٧].

٤) صحيح البخاري - مع الفتح - كتاب المغازي، باب غزوة تبوك: ٨/ ١٢ (ح٤٤١٦)، ورواه مسلم في: ٢/ ١٨٧٠، (ح٢٤٠٤)، والتّرمذي: ٥/ ٦٤٠- ٦٤١ (ح٣٧٣٠، ٣٧٣١)، وابن ماجه، المقدّمة: ١/ ٤٢- ٤٣ (ح١١٥)، وأحمد: ١/ ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ٣٣٠، وج٣ ص٣٢، ٣٣٨، وج٦ ص٣٦٩ و٤٣٨] .

وهذا لا حجة فيه للرافضة [يقول ابن حزم في إثبات ذلك: «وهذا لا يوجب له فضلاً على من سواه ولا استحقاق الإمامة بعده عليه السّلام؛ لأنّ هارون لم يل أمر بنيّ إسرائيل بعد موسى عليه السّلام، وإنّما ولي الأمر بعد موسى عليه السّلام يوشع بن نون، فتى موسى وصاحبه الذي سافر معه في طلب الخضر عليهما السلام، كما ولي الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه في الغار الذي سافر معه إلى المدينة.

وأيضًا فإنما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول إذ استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال المنافقون: استقله فخلفه، فلحق علي برسول الله صلى الله عليه وسلم فشكى ذلك إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، يريد عليه السلام أنه استخلفه على المدينة مختارًا لاستخلافه، ثم قد استخلف عليه السلام قبل تبوك وبعد تبوك على المدينة في أسفاره رجالاً سوى علي رضي الله عنه، فصح أن هذا الاستخلاف لا يوجب لعلي فضلاً على غيره، ولا ولاية الأمر بعده، كما لم يوجب ذلك لغيره من المستخلفين». [1]

---

١) (الفصل: ١٥٩/٤- ١٦٠). وانظر في إبطال احتجاج الرافضة بهذا الحديث: شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧٤/١٥، الإمامة والرد على الرافضة لأبي نعيم ص:٢٢١- ٢٢٢، منهاج السنة: ٨٧/٤ وما بعدها، المنتقى ص٢١٢، ٢١٣، ٣١١، ٣١٤، فتح الباري: ٧٤/٧، المقدسي/ الرد على الرافضة ص٢٠١- ٢٠٨، مختصر التحفة الاثني عشرية ص١٦٣- ١٦٤، السالوس/ الإمامة عند الجعفرية في ضوء

فالرافضة وإن استدلوا بأدلة لا تدل على مرادهم عند التحقيق فقد تركوا أدلة أخر ترد على ما في عقائدهم من الطعن على الصحابة ، وتبين فضل الصحابة بل فضل بعضهم على علي ابن أبي طالب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« إن الفضائل الثابتة في الأحاديث الصحيحة لأبي بكر وعمر أكثر وأعظم من الفضائل الثابتة لعلي » [1]

وقال أيضاً : « فإن فضائل علي الثابتة عامتها مشتركة بينه و بين غيره بخلاف فضائل أبي بكر و عمر فإن عامتها خصائص لم يشاركا فيها ثم يدعي أن تلك الفضيلة توجب الإمامة و معلوم أن الفضيلة الجزئية في أمر من الأمور ليست مستلزمة للفضيلة المطلقة ولا للإمامة و لا مختصة بالإمام بل تثبت للإمام و لغيره و للفاضل المطلق »[2]

ولا يخفى أن الشيعة وقعوا في نفس الخطأ الذي وقعت فيه الخوارج من سوء فهم للنص الذي يستدلون به، مع إغفالهم النصوص الأخرى التي لا توافق أهواءهم ، وزاد على الخوارج بالكذب ، والبهتان .

السنة ص٣٣- ٣٤، وغيرها.. وانظر فيما مر كتاب أصول مذهب الشيعة الإمامية عرض ونقد ٢ /٦٨٧

١) منهاج السنة النبوية - (٥ / ٢)

٢) منهاج السنة النبوية - (٧ / ١٢٣)

رابعا : النواصب[1] وهم الفرقة التي تقابل الشيعة ، فكما أن الشيعة ردت فضائل الصحابة غير علي رضي الله عنه، رد النواصب الفضائل التي لعلي رضي الله عنه وأهل بيته .فوقعوا في القراءة العضين .

قال ابن تيمية : « مقال الروافض التي تكفر جمهور السابقين الأولين أو تفسقهم ويكفرون كل من قاتل عليا. ومقالة النواصب والأموية التي تفسق عليا وذويه ويقولون هو ظالم معتد»

وقال أيضا : « وفي الحديث (يعني حديث مباهلة أهل نجران) رد على النواصب الذين لا يتولونه ولا يحبونه وعلى الخوارج الذين كفروه لكن هذا لا يتم على قول الرافضة الذين جعلوا النصوص الدالة على فضل الصحابة كانت قبل ردتهم فإن الخوارج كذا تقول في علي وهذا باطل لأن الله لا يحب ولا يرضى عمن يعلم أنه يموت كافرا [2] .

وأود التنبيه إلى أن أهل الأهواء والافتراق معهم شبهات يشبهون بها على من ليس لديه علم راسخ ، فيخلطون فيها الحق بالباطل .

---

١) والنواصب: هم قوم يدينون ببغض عليّ رضي الله عنه)، ولكن الروافض تذهب في مفهوم النصب مذهباً آخر - كما ترى- حتى تجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصبياً (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١٢/٥) بل من قدم أبا بكر على عليّ فهو ناصبي / السرائر ص ٤٧١ ، وسائل الشيعة ٣٤١/٦- ٣٤٢.

٢) المنتقى من منهاج الاعتدال - (١ / ٦٠)

قال ابن تيمية : «الباطل المحض لا يشتبه على أحد ولهذا سمي أهل البدع أهل الشبهات وقيل فيهم إنهم يلبسون الحق بالباطل وهكذا أهل الكتاب معهم حق وباطل ولهذا قال تعالى لهم:{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٤٢] . وقال: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة:٨٥] . وقال عنهم: {وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً }[النساء: ١٥٠]. وقال عنهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ} [البقرة:٩١]. وذلك لأنهم ابتدعوا بدعا خلطوها بما جاءت به الرسل وفرقوا دينهم وكانوا شيعا فصار في كل فريق منهم حق وباطل وهم يكذبون بالحق الذي مع الفريق الآخر ويصدقون بالباطل الذي معهم وهذا حال أهل البدع كلهم فإن معهم حقا وباطلا فهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل فريق يكذب بما مع الآخر من الحق ويصدق بما معه من الباطل كالخوارج والشيعة فهؤلاء يكذبون بما ثبت من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويصدقون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويصدقون بما ابتدعوه من تكفيره وتكفير من يتولاه ويحبه وهؤلاء يصدقون بما روي في فضائل علي بن أبي طالب ويكذبون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر ويصدقون بما ابتدعوه من التكفير والطعن

في أبي بكر وعمر وعثمان ودين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة » [1]

وبين ابن تيمية تناقض أهل هذه القراءة العضين ، وتهافت حججهم فيقول :

« الرافضي لا يمكنه أن يقيم حجة على الناصبي الذي يكفره علنا أو يفسقه ، فإنه إذا قال للرافضي بماذا علمت أن عليا مؤمن ولي لله من أهل الجنة قبل ثبوت إمامته ؟ وهذا إنما يعلم بالنقل والنقل إما متواتر وإما آحاد ، فإن قال له الرافضي بما تواتر من إسلامه ودينه وجهاده وصلاته وغير ذلك من عباداته، قال له وهذا أيضا متواتر عن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمرو ابن العاص وغيرهم من الصحابة وأنت تعتقد كفرهم أو فسقهم .

وقال له أيضا أنت تقول إن عليا كان يستجيز التقية وأنه: يظهر خلاف ما يبطن ،ومن كان هذا قوله أمكن أن يظهر الإسلام مع نفاقه في الباطن . فإن قال الرافضي للناصبي علمت ذلك بثناء النبي صلى الله عليه وسلم وشهادته له بالإيمان والجنة، كقوله: "لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله"[2] وقوله : "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ونحو ذلك "

(١) منهاج السنة النبوية - (٥ / ١١١)
(٢) صحيح البخاري - (٣ / ١٠٧٧)

قال له الناصبي : قد نقل أضعاف ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وأنت تطعن في تلك المنقولات ، أو تقول إنهم ارتدوا بعد موته فما يؤمنك إن كان قولك في هؤلاء صحيحا أن يكون على كذلك ، وأيضا فهذه الأحاديث إنما نقلها الصحابة الذين تذكر أنت كفرهم وفسقهم والكافر والفاسق لا تقبل روايته .

فإن قال هذه نقلها الشيعة. قال له الناصبي الشيعة لم يكونوا موجودين على عهد النبي ﷺ وهم يقولون إن الصحابة ارتدوا إلا نفرا قليلا إما عشرة أو أقل أو أكثر ومثل هؤلاء يجوز عليهم المواطأة على الكذب » (١)

إن القراءة العضين باب التكفير الأكبر وطريقه الأرحب ، ولا يخفى فيما في التكفير من تفتيت الأمة . وإذا أردنا محاربة التكفير فأول ذلك الباب الذي يلج منه ، وهو القراءة العضين .

قال ابن تيمية : « صار كثير من أهل البدع مثل الخوارج والروافض والقدرية والجهمية والممثلة يعتقدون اعتقادا هو ضلال يرونه هو الحق ويرون كفر من خالفهم في ذلك ، فيصير فيهم شوب قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق ، ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفر ب «المقالة» التي لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها . »(٢)

---

(١) درء التعارض (٦ / ١٧٣) .
(٢) الكيلانية - (١ / ٩٥) .

بل إن أهل البدع بلغوا من تعضيتهم للنص أنهم جزؤوا النص الواحد فاستدلوا بجزء منه وتركوا الجزء الذي يرد عليهم من النص نفسه . قال محمد بن كعب القرظي : "والذي نفس محمد بيده لوددت أن يميني هذه تقطع على كبر سني، وأنهم أتموا آية من كتاب الله تعالى، ولكنهم يأخذون بأولها ويتركون آخرها، ويأخذون بآخرها ويتركون أولها"[1]

قال الدارمي : ـ في رده على الجهمية في استدلالهم بآية تركوا دلالة أولها وآخرها لأنهما يردان استدلالهم بها ، وتمسكوا بجزء منها ظنوه يدل على ما أرادوا ـ

"وتعلقتم بوسط الآية وأغفلتم فاتحتها و خاتمتها لأن الله عز وجل افتتح الآية بالعلم بهم وختمها به فقال ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . . إلى قوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] ففي هذا دليل على أنه أراد العلم بهم وبأعمالهم لا أنه نفسه في كل مكان معهم كما زعمتم"[2] .

وهذا رد مفحم لهؤلاء الذين ينتقون من النقوص ما يوافق أهوائهم فرحم الله الإمام الداري ورحم أئمة السلف جميعاً .

---

(١) الشريعة للآجري - (٢ / ٤٥)

(٢) الرد على الجهمية - الدارمي - (١ / ٤٣)

هذه بعض النماذج سُقتها كأمثلة على هذه القراءة العضين، والشواهد والنماذج كثيرة جداً لاسيما مع كثرة النصوص الشرعية التي جعلتها الفرق الضالة عضين .

المبحث الخامس

القراءة الشمولية وأهميتها في دفع القراءة العضين

مفهوم القراءة الشمولية .

بعد أن عرفنا القراءة العضين وأسبابها ونماذج من الفرق التي تأثرت بها وآثارهاعلى الأمة، لا بد لنا من معرفة ما يقابل هذه القراءة وهي القراءة الصحيحة المضادة لهذه القراءة المختلفة عنها تماما ، ألا وهي القراءة الشاملة والتي سأوضح فيما يأتي مفهومها لغة واصطلاحا، وأثرها في الأمة وشرح آثارها في توحيد كلمة الأمة على الحق، ونذكر ملامح وسمات أهل هذه القراءة الشمولية .

معنى الشمول لغة: الشمول في اللغة: العموم قال في المصباح المنير :

«شَمِلَهُمْ الْأَمْرُ شَمَلًا مِنْ بَابِ تَعِبَ عَمَّهُمْ وَشَمَلَهُمْ شُمُولًا مِنْ بَابِ قَعَدَ لُغَةٌ وَأَمْرٌ شَامِلٌ عَامٌّ وَجَمَعَ اللهُ شَمْلَهُمْ أَيْ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ أَيْ مَا اجْتَمَعَ مِنْ أَمْرِهِمْ . »[1]

المعنى اللغوي ظاهر فيه الدلالة على العموم ، وأما المقصود بالقراءة الشمولية فسأوضحها فيما يأتي .

---

١ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - (٥ / ٧٦).

المقصود بالقراءة الشمولية:

هي الدخول في الإسلام كافة ، وترك الافتراق في كليات الدين وأسسه القطعية.

ويمكن أن يقال بأنها فهم الإسلام بشموله وعمومه في كل المجالات المتعددة ، وجمع النصوص الشرعية في المسائل والأخذ والعمل بها كافة والرد على من جزأها وعارض بينها .

وقد أمر الله تعالى بهذه القراءة في آيات عديدة منها قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨]

وقوله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:١٣]

قال ابن جرير رحمه الله : " إن الله جل ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها، وقد يدخل في"الذين آمنوا" المصدِّقون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، والمصدقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاءوا به، وقد دعا الله عز وجل كلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده، والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع أي من

ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم"الإيمان"، فلا وجه لخصوص بعض بها دون بعض. كافة" عامة، جميعًا، "[1]

وقد بين الشيخ رشيد رضا رحمه الله معنى قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} وكلامه رحمه الله تضمن شرحاً للقراءة الشمولية وردا على القراءة العضين، وهو كلام نفيس تضمن معاني دقيقة ومهمة: فقال :

«هَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَقَاعِدَةٌ لَوْ بَنَى جَمِيعُ عُلَمَاءِ الدِّينِ مَذَاهِبَهُمْ عَلَيْهَا لَمَا تَفَاقَمَ أَمْرُالْخِلَافِ فِي الْأُمَّةِ ، ذَلِكَ أَنَّهَا تُفِيدُ وُجُوبَ أَخْذِ الْإِسْلَامِ بِجُمْلَتِهِ ، بِأَنْ نَنْظُرَ فِي جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الشَّارِعُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْ نَصٍّ قَوْلِيٍّ وَسُنَّةٍ مُتَّبَعَةٍ ، وَنَفْهَمَ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَنَعْمَلَ بِهِ، لَا أَنْ يَأْخُذَ كُلٌّ وَاحِدٍ بِكَلِمَةٍ أَوْ سُنَّةٍ وَيَجْعَلَهَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، وَإِنْ أَدَّتْ إِلَى تَرْكِ مَا يُخَالِفُهَا مِنَ النُّصُوصِ وَالسُّنَنِ ، وَحَمْلِهَا عَلَى النَّسْخِ أَوِ الْمَسْخِ بِالتَّأْوِيلِ، أَوْ تَحْكِيمِ الِاحْتِمَالِ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ، وَلَوْ أَنَّكَ دَعَوْتَ الْعُلَمَاءَ إِلَى الْعَمَلِ بِالْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ - الَّذِي عَرَفُوهُ وَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَى قَائِلِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَإِنْ رَجَّحَ بَعْضُهُمْ فِي التَّفْسِيرِ غَيْرَهُ عَلَيْهِ - لَوَلَّوْا مِنْكَ فِرَارًا ، وَأَعْرَضُوا عَنْكَ اسْتِكْبَارًا ، وَقَالُوا : مَكَرَ مَكْرًا كُبَّارًا ، إِذْ دَعَا إِلَى تَرْكِ الْمَذَاهِبِ ، وَحَاوَلَ إِقَامَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْهَجٍ وَاحِدٍ .

---

(١) تفسير الطبري (٤ / ٢٥٧)

وَمِنْ آيَاتِ الْعِبْرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّنَا نَجِدُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَائِنَا هُدًى وَنُورًا لَوِ اتَّبَعَتْهُ الْأُمَّةُ فِي أَزْمِنَتِهِمْ لَاسْتَقَامَتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَوَصَلَتْ إِلَى الْحَقِيقَةِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مَضِيقِ الْخِلَافِ وَالشِّقَاقِ إِلَى بُحْبُوحَةِ الْوَحْدَةِ وَالِاتِّفَاقِ، وَالسَّبَبُ فِي بَقَاءِ الْغَلَبِ لِسُلْطَانِ الْخِلَافِ وَالنِّزَاعِ فُشُوُّ الْجَهْلِ، وَتَعَصُّبُ أَهْلِ الْجَاهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِمَذَاهِبِهِمُ الَّتِي إِلَيْهَا يَنْتَسِبُونَ ، وَبِجَاهِهَا يَعِيشُونَ وَيُكْرَمُونَ ، وَتَأْيِيدُ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ لَهُمُ اسْتِعَانَةً بِهِمْ عَلَى إِخْضَاعِ الْعَامَّةِ ، وَقَطْعِ طَرِيقِ الِاسْتِقْلَالِ الْعَقْلِيِّ وَالنَّفْسِيِّ عَلَى الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَعْوَنُ لَهُمْ عَلَى الِاسْتِبْدَادِ، وَأَشَدُّ تَمْكِينًا لَهُمْ مِمَّا يَهْوَوْنَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ؛ إِذِ اتِّفَاقُ كَلِمَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَاجْتِمَاعُهَا عَلَى أَنَّ الْحَقَّ كَذَا بِدَلِيلِ كَذَا مُلْزِمٌ لِلْحَاكِمِ بِاتِّبَاعِهِمْ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْخَوَاصَّ إِذَا اتَّحَدُوا تَبِعَهُمُ الْعَوَامُّ ، وَهَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْفَرْدَةُ لِإِبْطَالِ اسْتِبْدَادِ الْحُكَّامِ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مُؤَيَّدٌ بِالنَّعْيِ عَلَى الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ، وَالْإِنْكَارِ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؛ أَيْ : يَعْمَلُونَ بِبَعْضِهِ عَلَى أَنَّهُ دِينٌ وَيَتْرُكُونَ بَعْضًا بِتَأْوِيلٍ أَوْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ ، كَشَأْنِ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِأَنَّهُ مِنَ اللهِ . فَوُجُوبُ أَخْذِ الْقُرْآنِ وَالدِّينِ بِجُمْلَتِهِ ، وَفَهْمِ هِدَايَتِهِ مِنْ مَجْمُوعِ مَا ثَبَتَ عَمَّنْ جَاءَ بِهِ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ فِي ذَاتِهِ ، سَوَاءٌ فُسِّرَتْ بِهِ الْآيَةُ أَوْ لَا؛ لِأَنَّ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَشَرْنَا إِلَيْهِمَا آنِفًا فِي جَعْلِ الْقُرْآنِ عِضِينَ ، وَفِي الْإِيمَانِ بِبَعْضِهِ وَالْكُفْرِ بِبَعْضٍ، وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ النُّصُوصِ تُثْبِتُهُ . » [١]

---

١) تفسير المنار - (٢ / ٢٠٥) .

ومــن النصــوص الشـــرعية الحاثــة عــلى القــراءة الشــمولية والمحذرة من التفرق في الدين قوله تعالى : {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]

قال ابن كثير :

"وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف."[١]

وقال الشنقيطي مبيناً معنى الآية :

"الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : (فِيهِ)، رَاجِعٌ إِلَى الدِّينِ فِي قَوْلِهِ : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) .

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الِافْتِرَاقِ فِي الدِّينِ - جَاءَ مُبَيَّنًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَقَدْ بَيَّنَ - تَعَالَى - أَنَّهُ وَصَّى خَلْقَهُ بِذَلِكَ ، فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} الْآيَةَ [٣ \ ١٠٣] . وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [٦ \ ١٥٣] . وَقَدْ بَيَّنَ - تَعَالَى - فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَجْتَنِبُونَ هَذَا النَّهْيَ ، وَهَدَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : {إِنَّ الَّذِينَ

---

١) تفسير ابن كثير / دار طيبة - (٧ / ١٩٥) .

فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [٦ \ ١٥٩] . لِأَنَّ قَوْلَهُ : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِلَى قَوْلِهِ : يَفْعَلُونَ - فِيهِ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ} [٢٣ \ ٥٢ - ٥٤] .

فَقَوْلُهُ : وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً أَيْ : إِنَّ هَذِهِ شَرِيعَتُكُمْ شَرِيعَةً وَاحِدَةً ، وَدِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ ، وَرَبُّكُمْ وَاحِدٌ فَلَا تَتَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ - جَلَّ وَعَلَا - : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجْتَنِبُوا مَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - : فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ فِيهِ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ عَظِيمٌ عَلَى ذَلِكَ . وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي سُورَةِ «الْأَنْبِيَاءِ» : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} [٢١ / ٩٢ - ٩٣] . فَقَوْلُهُ - تَعَالَى- : {كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} فِيهِ أَيْضًا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ عَلَى ذَلِكَ[١]

١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - (٧ / ٦١)

نعم إن القراءة الشمولية قائمة على النظرة الشمولية لهذا الدين فهي لا تأخذ بآية أو حديث وتصد عن البقية ، بل إنها تأخذ بجميع الأدلة في الكتاب والسنة .

قال ابن حزم: «ولا حديث بأوجب من حديث آخر مثله ، ولا آية أولى بالطاعة لها من آية أخرى مثلها ، وكلٌ من عند الله عز وجل، وكل سواء في باب وجوب الطاعة والاستعمال ولا فرق.».[1]

والأصل في هذه الأدلة الشرعية الإحكام والوضوح وأما المتشابه فيها فقليل ، والراسخون في العلم هم أصحاب القراءة الشمولية أما الزائغون فهم أتباع المتشابه .

يقول الشاطبي : « فإن الشريعة إذا كان فيها أصل مطرد في أكثرها مقرر واضح في معظمها، ثم جاء بعض المواضع فيها مما يقتضي ظاهره مخالفة ما اطرد، فذلك من المعدود في المتشابهات التى يتقى اتباعها؛ لأن اتباعها مفض إلى ظهور معارضة بينها وبين الأصول المقررة والقواعد المطردة، فإذا اعتمد على الأصول وأرجئ أمر النوادر، ووكلت إلى عالمها أو ردت إلى أصولها؛ فلا ضرر على المكلف المجتهد ولا تعارض في حقه.

ودل على ذلك قوله تعالى: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: ٧]؛ فجعل المحكم -وهو الواضح المعنى

---

١) الإحكام (١٦١/١)

الذي لا إشكال فيه ولا اشتباه- هو الأمُّ والأصلَ المرجوع إليه، ثم قال: {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧]، يريد: وليست بأم ولا معظم، فهى إذا قلائل، ثم أخبر أن اتباع المتشابه منها شأن أهل الزيغ والضلال عن الحق والميل عن الجادة، وأما الراسخون في العلم، فليسوا كذلك، وما ذاك إلا باتباعهم أم الكتاب وتركهم الاتباع للمتشابه. »[1]

وإذا كان حجم المتفق عليه كبيرا وأما المختلف عليه فقليل فهذا يدعونا إلى الاجتماع والألفة ، ومما لا ريب فيه أن الله سبحانه وتعالى أمرنا باجتماع الكلمة ووحدة الصف، ونبذ الفرقة والاختلاف في نصوص كثيرة وأحاديث صحيحة.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[آل عمران١٠٣]

ففي هذه الآية أمرنا الله عز وجل بالجماعة، ونهانا عن التفرقة[2].

يقول الطبري في تأويل قوله تعالى:{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ}: ((وتعلقوا بأسباب الله جميعًا يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عهده إليكم في كتابه

---

١) الموافقات - (٥ / ١٤٤)

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦٧)، فتح القدير للشوكاني (١/٣٦٧).

من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله))[١].

ويقول القرطبي في معنى الآية: ((فإن الله يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة؛ لأن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة))[٢].

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما لسماك الحنفي: ((يا حنفي، الجماعة الجماعة!! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾))[٣].

فالله سبحانه حثنا على الاجتماع، وأمرنا بلزوم جماعة المسلمين، وتألف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام[٤].

فاجتماع المسلمين على الحق من أصول الإسلام وقواعده العظام، يقول ابن تيمية: ((وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة))[٥].

ويقول أيضًا: ((وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات

---

(١) تفسير الطبري (٤/٢١).

(٢) تفسير القرطبي (٤/١٠٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/١٠٥).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/١١).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٢/٢١١).

البين))[1].

وهنا لا بد من الجمع بين الأمر بالاجتماع ووحدة الصف، وبين تحري الحق والثبات عليه وعدم التنازل عنه، ذلكم أن بعض الغيورين ممن يدعو إلى وحدة الأمة لا يلتفت إلى ما الذي ينبغي أن تتحد وتتآلف القلوب عليه، إنما همه الوحدة والاجتماع فحسب، وقد يطالب بعضهم بأنصاف الحلول في قضايا الثوابت والأصول، ولم يدرك أن هذا يعد تضييعًا وتمييعًا للدين، وتفريقًا لصفوف المسلمين؛ لأن الائتلاف لا يتم إلا بالاجتماع على الحق، وعدم الأخذ ببعضه وترك البعض الآخر.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ إلى هذه الأصول التي لا يجوز الاختلاف فيها والأمور التي يسع الخلاف فيها ولا تكون من أمور الاختلاف ـ فقال :

« فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء "[2]

وقال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني ــ مبينا سبب اتفاق أهل السنة على هذه الأصول التي منعتهم من الآختلاف ــ : ((وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٣).

٢) مجموع الفتاوى ج ١٩ ص ١١٧

الكتاب والسنة، وطريق النقل، فأورثهم الاتفاق والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف))[1].

وأكد الشاطبي هذا المعنى فقال: ((قال تعالى:{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ} فبين أن التأليف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى واحد، وأما إذا تعلق كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى، فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله تعالى: { فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ } [سورة الأنعام:١٥٣]))[2] .

ويسبق الإمام الشافعي كثيرًا من العلماء إلى تقرير أن المقصود اجتماع القلوب على الحق وليس المقصود اجتماع الأبدان فيقول: ((إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن في لزوم جماعتهم معنى إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما. ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/٢٢٦).

(٢) الاعتصام (٢/١٩٢).

جماعتهم التي أمر بلزومها))[١].

وهذا الذي أهدف إليه من وراء هذا البحث، وهو الاجتماع على الدين الجامع، أو الدين الشامل الكامل دون تفريط في شيء من ثوابته وكلياته وأصوله، {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [سورة الأنعام:٣٨]، وبهذا تتحقق الوحدة الإسلامية المنشودة.

أما التنازل بشكل تلفيقي لا توفيقي على أساس من المجاملات المتكلفة، فهذا لا يؤدي إلى الوحدة، إنما يؤدي إلى الفرقة، وهذا هو المنهج الذي ارتضاه الله لأمته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ...) الحديث[٢].

فتأمل كيف قرن بين وحدة المعتقد على توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، ووحدة الجماعة وائتلافها باعتصامها بحبل الله، وذلك لقوة ارتباطهما ببعض وتلازمهما، فصحة العقيدة والاجتماع عليها سيؤدي إلى وحدة الكلمة والجماعة.

وقد بيّن الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل. فقال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[سورة يونس:٣٢].

---

(١) الرسالة للشافعي، (ص٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥).

قال القرطبي: ((قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول، فإن الحقّ فيها في طرف واحد))[1] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: قوله تعالى: { فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ} قال: ((إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها))[2].

وهذه السبل بين معناها عبد الله بن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنه فقال: (لا تتبعوا الضلالات)[3].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: (خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره، ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها. ثم قرأة هذه الآية)[4].

ولا يظنّن غِمرٌ أنني أدعو إلى الاجتماع حول كل جزئيات الدين وفروعه، فإن هذا ضربٌ من الخيال، ومطالبة بخلاف الواقع والحال، ولكن الذي أدعو إليه هو الاجتماع على الكليات والقواعد الجامعة والأصلية التي جاء بها هذا الدين العظيم، أما الخلاف في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣٦/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٨٢/٢).

(٣) تفسير الطبري (٦٥/٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤٣٥/١)، والآجري في الشريعة (٢٩٠/١)، والحاكم (٢٣٩/٢ ، ٣١٨) وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٣/١).

الجزئيات فليس هو من تفريق الدين.

ولهذا نجد الإمام أبو إسحاق الشاطبي يقول: ((إن هذه الفرق إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنًى كليّ في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات تقتضي عددًا من الجزئيات غير قليل، وشاذها في الغالب أن لا يختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

واعتبر ذلك بمسألة التحسين العقلي، فإن المخالفة فيها أنشأت بين المخالفين خلافًا في فروع لا تنحصر، ما بين فروع عقائد وفروع أعمال.

وتجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضًا، وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة، وإن كانت زلة العالم مما يهدم الدين... ولكن إذا قرب موقع الزلة لم يحصل بسببها تفرق في الغالب ولا هدم للدين بخلاف الكليات))[1].

نعم إن الالتقاء على هذه الكليات والمحكمات من الدين هو الذي يعصمنا بإذن الله من التفرق شيعًا وأحزابًا متعادين

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٠٠- ٢٠١)، وانظر: الموافقات له (٤/ ٥٣٨).

متباغضين، ولهذا نجد أعداء الإسلام يحرصون على تفريق المسلمين عن هذه المحكمات. وقد بين شيخ الإسلام أن الاجتماع على هذه المحكمات مما أمر الله به الرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر ثمرة الاجتماع على هذه المحكمات وعواقب الاختلاف فيها فقال رحمه الله :

"وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم:٣٠-٣٢].

لأن المشركين كل منهم يعبد إلهًا يهواه، كما قال في الآية الأولى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيب﴾ [سورة الشورى:١٣].

وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم﴾ [سورة المؤمنون:٥١-٥٣].

فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنًا وظاهرًا.

وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته وسواد الوجود وبراءة

الرسول منهم."(١).

ويؤكد الشيخ سفر الحوالي على ضرورة القراءة الشمولية وأنها ضرورية لوحدة الأمة فيقول :

" الدين شامل كامل، فيه الوعد والوعيد، وفيه الأحكام والآداب، وفيه تحريك العقل والوجدان، وفيه القوة والرحمة.

فإذا أخذت طائفة بالوعد وتركت الوعيد، وعكست الأخرى فأخذت بالوعيد ونسيت الوعد، فلا بد أن تقع العداوة والبغضاء والفرقة.

وكذلك: إذا أخذت طائفة بالآداب دون الأحكام، أو بالزهد دون العمل والجهاد. وواقع الفِرق يشهد لهذا بوضوح:

١ - فالخوارج تمسكوا بنصوص الوعيد فقط، حتى نفوا الإيمان عن مرتكب الكبيرة، وأنكروا الشفاعة، وضيقوا رحمة الله الواسعة.

والمرجئة تمسكوا بنصوص الوعد فقط، فقالوا: إن الإنسان مهما ارتكب من الكبائر دون الشرك فإن إيمانه كامل.

٢ - والشيعة أخذوا بفضائل علي رضي الله عنه، وجحدوا فضائل أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم؛ حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تأليه علي وتكفير الثلاثة، والخوارج قالوا: إن عليًّا كافر.

٣- والمتكلمون يقولون: إن الإسلام دين العقل والفهم، وهذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١/١٤- ١٧) باختصار.

حق، ولكنهم غلوا في تقدير قيمة العقل حتى حكموه في نصوص الوحي، وأنكروا الكرامات، والسحر، وعذاب القبر، والميزان والصراط، وما أشبهها من الغيبيات؛ لأنها تخالف العقل ـ بزعمهم ـ على خلاف بينهم في بعض ذلك.

والصوفية قابلوا المتكلمين بالعكس، فأنكروا قيمة العقل والفكر، وآمنوا بالخيالات والخرافات والأحلام، وسموها مكاشفات وكرامات وحقائق.

٤- والقدرية أخذوا بالنصوص التي تثبت مشيئة العبد وإرادته ومسئوليته عما يفعل ـ وهذا حق ـ ولكنهم أنكروا القدر، وما دل عليه من النصوص.

وقابلتهم الجبرية بالعكس، فأثبتوا القدر، وغلوا في ذلك، حتى جعلوا الإنسان مجبورًا على كل ما يفعل، وأنكروا النصوص التي أخذ بها القدرية.

٥- والممثلة والمشبهة أخذوا من النصوص ما يدل على إثبات الصفات فقط، وتركوا ما يدل على أنها ليست كصفات المخلوقين.

والمعطلة ـ نفاة الصفات ـ قبلوا النصوص الدالة على أن الله لا يماثله شيء من خلقه، وتركوا النصوص الدالة على إثبات الصفات، فأنكروا صفات الله تعالى بحجة التنزيه.

٦- ومثل ذلك من واقع الحياة الإسلامية:

أن طائفة من العلماء والقضاة توسعوا في متاع الحياة الدنيا،

فقابلتهم طائفة من الزهاد والعباد حاربوا الحلال والطيبات.

وفي مجال العلم اتجهت طائفة إلى النقل وحده، واشتغلوا بجمع المأثور، حتى جمعوا الضعاف والموضوعات والحكايات الباطلة.

وقابلتهم طائفة فاتجهت إلى الفهم والاستنباط وحده، فجهلوا كثيرًا من الصحاح، أو ردُّوها.

وفي مجال الدعوة؛ قامت طائفة تدعو إلى الجهاد والقوة، وأخرى تدعو إلى الأخلاق والآداب، وثالثة إلى العلم والبحث مع إهمال بقية الجوانب، فوقع التنازع والخلاف.

هذا، ولو أن المسلمين تمسكوا بالكتاب كله، واقتدوا بما كان عليه الجيل الأول؛ من فهم كامل وتوازن شامل لما وقع هذا الخلاف أو كثير منه، وهذا ما تدعو إليه الطائفة المنصورة الناجية أهل السنة والجماعة " (١).

وهذا الاتحاد الذي ندعوا إليه من التوحد على محكمات الدين وقطعياته ، هو الذي يحاربه أعداؤنا ، لإدراكهم أنه يعنى أفول نجم سيطرتهم على العالم الإسلامي وإفشالا لمخططاتهم، ومكرهم الذي يمكرونه آناء الليل وسواد النهار لمحاربة الإسلام والمسلمين .

يقول د. عابد السفياني: ((وقد حرص الكفار والمشركون على أن يفرقوا المسلمين عنها؛ لأنهم يعلمون أن المسلمين إذا تفرقوا في المحكمات فإنهم يضلون، ويضيّعون مجتمعاتهم؛ لأنه لا يمكن

---

(١) أصول الفرق والأديان (ص١١- ١٣).

حفظ المجتمع إلا بحفظ الضروريات الخمس المعروفة، ولا يمكن أن يكون المسلمون أمة واحدة على عقيدة صحيحة وشريعة واحدة إلا باتباع المحكمات، ولم ينحرف الكفار والمشركون إلا بسبب تفرقهم عنها من بعد ما جاءهم العلم، ولما جدد الله سبحانه لهم البلاغ على لسان الرسول ﷺ كبر عليهم أن يدعوا إلى تلك المحكمات))[1].

يقول المستشرق لورانس براون: ((إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذٍ بلا وزن ولا تأثير)).

ثم يتابع قائلًا: ((يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين ليبقوا بلا قوة ولا تأثير))[2].

وقد نجحوا بالفعل في هذه التجزئة والتفرقة عبر مخططات ومؤامرات كثيرة على هذه الأمة، بل إنهم يسعون حاليًا في تجزئة المجزء، وتقطيع المقطع، عبر إثارة النعرات الطائفية والإثنية والعرقية في كل بلد على حدة[3].

---

(١) المحكمات في الشريعة، د. عابد السفياني (ص٨٠).

(٢) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله (ص٥٥).

(٣) راجع تقارير مؤسسة (راند) وسترى هذا التخطيط المحكم لتفريق المسلمين. انظر ملخصًا له بالعربية: مستقبل العالم الإسلامي تحديات في عالم متغير، تقرير استراتيجي سنوي يصدر عن مجلة البيان (ص٤٩٩) وما بعدها، الإصدار الأول، ١٤٢٤هـ.

بينما نرى الوحدة الأوربية قد تجسمت وأصبحت حقيقة قائمة وواقعًا معاشًا انطلاقًا من فكرة حية نابضة بالحيوية والأمل أطلقها وزير خارجية فرنسا (روبار شومان) في (٩ مايو ١٩٥٠م) تنادي بالوحدة الأروبية، فوجدت الإرادة والعزيمة والقوة من شعوب أوربا وقادتها السياسيين، فحولوها إلى حقيقة ماثلة للعيان في أقلّ من نصف قرن من الزمان [١].

وهم يحاولون أن يوجدوا بعدًا أيديولوجيًّا وراء هذا الاتحاد لإدراكهم بأهمية البعد الأيديولوجي ومدى تأثيره في الوحدة، ولذلك يقول (روبار شومان) وزير خارجية فرنسا في تصريحه آنف الذكر: ((إن كل البلدان الأوربية قد تشكلت بالحضارة المسيحية حيث تكمن الروح الواجب إحياؤها)) .

أما النائبة الفرنسية (كريستيان بوتان) فتجعل من السند التاريخي للإرث المسيحي القاسم المشترك بين شعوب أوروبا الذي لا تؤثر فيه المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتدعو إلى وجوب التنصيص عليه في دستور أوروبا الموحد، وهي دعوة يؤيدها كل من بابا الفاتيكان والوزير الأول الإيطالي (برلسكوني) اللذين يناديان بوجوب التنصيص على مسيحية أوروبا [٢].

هكذا ينادون بالتوحد على أساس عقدي، رغم أن دينهم قائم

---

(١) الدستور الأوروبي، صالح التقاز، نقلًا عن الوحدة الإسلامية بين موجبات إحيائها وعوامل تثبيطها، د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين، (ص٦).

(٢) الدستور الأوروبي، صالح التقاز، نقلًا عن الوحدة الإسلامية بين موجبات إحيائها وعوامل تثبيطها، د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين، (ص٨- ٩).

على التثليث وهو ضد الوحدة، ونحن أصحاب التوحيد الصحيح الراسخ ما أحوجنا للعودة إلى توحيدنا حتى تتحد صفوفنا.

يقول د. كامل الشريف رحمه الله: ((إن اللقاء السياسي بين الدول الإسلامية مع اعتزازنا بأهميته وتقديرنا للخطوات الإيجابية التي قطعها، إلا أنه لا يزال بمعزل عن الارتباط العقائدي، مما يهدد الفكرة في المدى الطويل، ولذلك نعتقد بوجوب عقد مؤتمر قمة يكرس لوضع أسس ثابتة لهذا الارتباط، والمأمول أن ينبثق عن المؤتمر مؤسسات علمية وفقهية مزودة بخلاصة الكفاءات والخبرات لتوجيه الدول الإسلامية نحو الأخذ بالتشريع الإسلامي في كافة مجالات الحياة حتى تقوم الأرضية الفكرية المشتركة بين الدول الإسلامية، وينتصب صرح التضامن الإسلامي على أساس عقائدي ثابت الأركان))[(١)].

وتتعدد المقترحات لتفعيل آليات الوحدة الإسلامية، ومن المقترحات والآليات المناسبة ما قدمه د. عبد الرزاق السنهوري عميد الحقوقيين العرب الذي كرس لتلك المقترحات والآليات أطروحته لنيل شهادة الدكتواره بجامعة السوربون في باريس سنة (١٩٢٣م)، وقد عنونها بـ (كيف يمكن تفعيل آليات الوحدة الإسلامية لتحقيق دولة الإتحاد الإسلامي).

---

(١) التضامن الإسلامي واجب ديني وضرورة إنسانية (ص٢٧)، ضمن أبحاث الملتقى الأول لعلماء المسلمين تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية، ط ١، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٧هـ.

وقد أعدها لترميم وحدة الأمة الإسلامية التي تهاوت تحت معاول مصطفى كمال أتاتورك، وعدائه المستحكم للإسلام ولغته اللغة العربية، فقد قضى على الخلافة الإسلامية عنوان وحدة الأمة سنة (١٩٢٤م)، وهي اقتراحات يبدو أن أوروبا قد استفادت منها في بناء وحدتها عبر ما أقامته من مؤسسات اقتصادية وتشريعية ودستورية.

ومما اقترحه د. عبد الرزاق السنهوري رحمه الله:

١- إلغاء الحدود، وهو ما صنعته أوروبا بمعاهدة شنغن بوكسمبور.

٢- إنشاء الدينار الإسلامي الواحد، وهو ما حققته أوروبا باليورو.

٣- تشكيل مجلس أهل الحل والعقد، وهو ما حققته بالمجلس الأوروبي ببروكسل، عاصمة بلجيكا.

٤- تشكيل ديوان المظالم، وهو ما حققته أوروبا بالمحكمة الأوروبية بسترازبوغ، عاصمة اللأزاس بفرنسا.

٥- إقامة بيت مال المسلمين، وهو ما حققته بالبنك المركزي الأوروبي.

٦- وضع ميثاق العهد الإسلامي، وهو ما ستحققه بدستورها المشترك [1].

---

(١) لما توحد الأوروبيون وتفرق العرب، د. أحمد القديدي، صحيفة الشرق القطرية، (٢٥/ ٥/ ٢٠٠٥م)، نقلًا عن الوحدة الإسلامية بين موجبات إحيائها وعوامل تثبيطها، د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين، (ص١٤- ١٥).

والذي يتعلق بموضوع بحثنا من هذه المقترحات هو (ميثاق العهد الإسلامي)، والذي سيشكل البناء العقدي والتشريعي للكليات المهمة التي تجمع عليها أمة الإسلام.

وهي كليات محكمة دلّ عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة الإسلامية، ونحن أولى من أوروبا الوثنية المادية بالميثاق الذي يوحدنا ويؤلف بين قلوبنا، وهو ميثاق قائم على أصول راسخة .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة ١٠٩]

وهذا الميثاق سيرد على الذين فرقوا دينهم وأخذوا ببعض الدين وتركوا بعضه الآخر؛ لأنه ميثاق شامل يتضمن كمال الدين ووسطيته واعتداله.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [سورة المائدة:٣].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [سورة البقرة:١٤٣].

وإذا سارت الأمة على هذا المنهج الشامل الوسطي المعتدل المتوزن، فإنها ستحقق ما حققه السلف الصالح من عزة ونهضة وإصلاح، ((ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ولعل سائلاً يسأل ويقول أنت دعوت إلى القراءة الشمولية نظريا ، فهل تجد لها مثالا تطبيقا يقتدى به ويقتفى أثره ؟

والجواب بلى . وهو ما كانت عليه الأمة قبل الافتراق ، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التمسك به فقال ـ حين ذكر الافتراق مبينا سبل النجاة منه ـ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور »[1]

وتأمل ثمار القراءة الشمولية في تلك المرحلة وما وصلت إليه الأمة من المجد والسؤدد، وقارنه بحالها بعد حصول الافتراق ، تجد ذلك البون الشاسع والدليل القاطع على سلامة منهج السلف الصالح ، ويجدر بنا الإشارة إلى أهم الملامح والسمات لهذا المنهج السلفي المبارك الذي طبق القراءة الشمولية .

الملامح والسمات العامة لأهل القراءة الشمولية :

١- أَنَّهم أَهل الوسط والاعتدال بين الإفراط والتفريط ، وبين الغلو والجفاء سواء أكان في باب العقيدة أَم الأَحكام والسلوك ، فهم وسطٌ بين فرق الأمَّة ، كما أَنَّ الأُمة وسطٌ بين الملل .

---

١) أخرجه أحمد (١٢٦/٤، رقم ١٧١٨٤)، وأبو داود (٢٠٠/٤، رقم ٤٦٠٧)، والترمذى (٤٤/٥، رقم ٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح . وابن ماجه (١٥/١، رقم ٤٢)، والحاكم (١٧٤/١، رقم ٣٢٩) وقال : صحيح ليس له علة . والبيهقى (١١٤/١٠، رقم ٢٠١٢٥) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (١٧٨/١، رقم ٥) ، والدارمى (٥٧/١، رقم ٩٥) .من حديث العرباض بن سارية

٢ - اقتصارهم في التلقِّي على الكتاب والسنَّة ، والاهتمام بهما والتسليم لنُصوصهما ، وفهمهما على مقتضى منهج السلف .

٣ - ليس لهم إِمام مُعظَمٌ يأَخذون كلامه كلَه ويدعُونَ ما خالَفه إِلا رسول اللهّ- صلى اللهّ عليه وعلى آله وسلم- وهم أَعلمُ الناسِ بأَحواله ، وأَقواله ، وأَفعاله ، لذلك فهم أَشدُّ النَّاس حُبّا للسُّنَّة ، وأَحرصهم على اتباعها ، وأكثرهم موالاة لأَهلها .

٤ - تركهم الخصومات في الدِّين ، ومجانبة أَهلها ، وترك الجدال والمراء في مسائل الحلال والحرام ، ودخولهم في الدِّين كُلّه .

٥ - تعظيمهم للسَّلف الصالح ، واعتقادهم بأن طريقة السلف أَسْلَم ، وأعلم ، وأحكم .

٦ - رَفْضهُم التأويل ، واستسلامهم للشرع ، والجمع بين النقل والعقل ودرء التَعارض بينهما .

٧ - جمعُهُم بين النصوص في المسألة الواحدة وَردهم المتشابه إِلى المحكم .

٨ - أَنهم قدوة الصالحين ؛ الذين يهدون إِلى الحقِ ، ويرشدون إِلى الصراط المستقيم ؛ بثباتهم على الحقِّ وعدم تَقَلُبِهِمْ ، واتِّفاقهم على أُمور العقيدة ، وجمعهم بين العلم والعبادة ، وبين التوكل على اللهّ ، والأَخذ بالأَسباب ، وبين التوسع في الدُّنيا والورع فيها ، وبين الخوف والرجاء ، والحب والبغض في اللهّ ، وبين

الرحمة واللين للمؤمنين والشدةِ والغلظة على الكافرين ، وعدم اختلافهم مع اختلاف الزمان والمكان .

٩- أَنَّهم لا يتسمَون بغير الإِسلام ، والسُنَّة ، والجماعة .

١٠- حِرْصُهُم على نشرِ العقيدة الصحيحة ، والدين القويم ، وتعليمهم النَاس وإرشادهم ، والنصيحة لهم ، والاهتمام بأُمورهم.

١١- أَنهم أَعظمُ النَّاس صبرا على أَقوالهم، ومعتقداتهم، ودعوتهم .

١٢- حِرصُهم على الجماعة والأُلفة ، ودعوتهم إِليها وحث النَاس عليها ، ونبذهم للاختلاف والفرقَةِ ، وتحذير النَّاس منها .

١٣- أَنَّ اللّه- عز وجل- عَصَمَهمُ من تكفير بعضهم بعضا، ثمَ هم يحكمون على غيرهم بعلم وعدل .

١٤- محبَّة بعضهم لبعض، وترحُّم بعضهم على بعض، وتعاونهم فيما بينهم، وسد بعضهم لنقص بعض، ولا يوالون ولا يعادون إِلا في اللّه .

وبالجملة : فهم أحسنُ النَّاس أَخلاقا ، وأَحرصهم على زكاة أَنفسهم بطاعة اللّه تعالى، وأَوسعُهم أُفُقا، وأَبعدهم نظرا، وأَرحبهم بالخلاف صدرا ، وأَعلمُهم بآدابه وأصوله .[1]

---

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة - (١ / ٢٨)

ومن سمات أهل القراءة الشمولية رد القراءة العضين والتحذير منها كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأن حاصل السكوت عن الأخطاء في علوم الدين هو تبديل الدين وطمس معالمه بسبب تراكم الأخطاء عبر السنين والقرون مع عدم الإنكار والتغيير، حتى لايعرف المتأخرون إلا الدين المبدَّل ويحسبونه الحق ولايدرون عن الدين الحق شيئا وإذا أُخبروا به أنكروه، فيصير المعروف منكراً، كما يصير المنكر معروفا. وهذا ماوقع لأصحاب الأديان السابقة كاليهود والنصارى وكما بدّل العرب دين إبراهيم عليه السلام قبل بعثة النبي ﷺ .

وهؤلاء هم المجددون للدين بالحق الذين يردون عنه عدوان الغالين وتفريط المفرطين، وهم أصحاب القراءة الشمولية الذين يكشفون للناس ما التبس عليهم فيه الحق بالباطل وهم حفظة هذا الدين .

قال ابن تيمية رحمه الله :"وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله،فصار فيه من الحق مايوجب قبوله، ومن الباطل مايوجب رده، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض. قوم كذّبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل. وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة.

فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى، وهذا الدين لاينسخ أبداً لكن يكون فيه من يُدخِل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان مايلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون." (١)

وهؤلاء العلماء الربانيون أصحاب القراءة الشمولية يمتثلون أمر رسول الله ﷺ حين قال : "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟، قال "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"(٢)

---

١) (مجموع الفتاوى) جـ ١١ صـ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

٢) أخرجه مسلم (٧٤/١، رقم ٥٥)، وأحمد (١٠٢/٤، رقم ١٦٩٨٢) ، وأبو داود (٢٨٦/٤، رقم ٤٩٤٤)، والنسائى (١٥٦/٧ ، رقم ٤١٩٧) ، وأبو عوانة (٤٤/١، رقم ١٠١)، وابن خزيمة فى السياسة كما فى إتحاف المهرة للحافظ (٨/٣، رقم ٢٤٥٦)، وابن حبان (٤٣٥/١٠، رقم ٤٥٧٤)، والبغوى فى الجعديات (٣٩٢/١، رقم ٢٦٨١) وابن قانع (١٠٩/١) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٣/٤، رقم ٥٢٦٥) ، وأبو نعيم فى المعرفة (٤٤٩/١، رقم ١٢٩١) . وأخرجه أيضًا : الطبرانى (٥٤/٢ ، رقم ١٢٦٧)، وابن عساكر (٥٤/١١) .
حديث أبى هريرة : أخرجه الترمذى (٣٢٤/٤ رقم ١٩٢٦) وقال : حسن صحيح . والنسائى (١٥٧/٧ رقم ٤١٩٩) ، والدارقطنى فى الأفراد كما أطرافه لابن طاهر (٣٤٦/٥ ، رقم ٥٦٩٩) . وأخرجه أيضًا : أحمد (٢٩٧/٢، رقم ٧٩٤١) ، والطبرانى فى الأوسط (١٢٢/٤ ، رقم ٣٧٦٩) .

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال :"بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم"(١).

ولاشك في أن بيان الخطأ في الدين والتحذير منه والرد عليه هو من أعظم النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعموم المسلمين، إذ يترتب على السكوت عنه فساد دين الناس ومايتبعه من فساد دنياهم وآخرتهم.

وقد أورد البخاري رحمه الله، في كتاب الأدب من صحيحه، باب "مايجوز من اغتياب أهل الفساد والريب"، وفيه روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ائذنوا له، بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة"، فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يارسول الله، قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام؟، قال :"أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس ـ أو وَدَعه الناس ـ اتقاء

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧ وأحمد ٣٦٥/٤، ، و٥٢٤ ، و٢٧١٥، والترمذي ١٩٢٥، والطبراني ٢٢٤٦ .

وأخرجه أحمد ٣٦١/٤، والحميدي ٧٩٥، والبخاري ١٤٠١ في الزكاة: باب البيعة على إيتاء الزكاة، و٢١٥٧ في البيوع: باب ما يبيع حاضر لباد بغير أجر؟

وهل يعينه أو ينصحه؟ ومسلم ٥٦ ٩٧ في الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة، والطبراني ٢٢٤٤ و٢٢٤٥ و٢٢٤٧ و٢٢٤٨ و٢٢٤٩ من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، به.

وأخرجه بنحوه أحمد ٣٥٧/٤ و٣٥٨ و٣٦٠ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٥ و٣٦٦، والبخاري ٥٨ و٢٧١٤ و٧٢٠٤، ومسلم ٥٦ ٩٨ و٩٩، والنسائي ١٤٠/٧، والطبراني ٢٣٠٣ و٢٣١٧ و٢٣٤٢ و٢٣٥١ و٢٣٥٤ و٢٣٥٦، والبيهقي ١٤٥/٨- ١٤٦

فُحشِه". ،[1] قال ابن حجر في شرحه (قال العلماء: تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعاً حيث يتعيّن طريقاً إلى الوصول إليه بها ... والتحذير من الشر، ويدخل فيه تجريح الرواة والشهود ... وكذا من رأي متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ويخاف عليه الاقتداء به)[2]

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن الأوزاعي رحمهما الله قال: "إذا ظهرت البدع فلم ينكرها أهل العلم صارت سُنّة" [3]

وقال أبوحامد الغزالي رحمه الله "بيان الأعذار المرخصة في الغيبة: اعلم أن المرخص في ذكر مساوئ الغير هو غرض صحيح في الشرع لايمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهى ستة أمور ـ إلى أن قال ـ الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه، فلَكَ أن تكشف له بدعته وفسقه) [4]

ولا ريب أن الرد على أهل البدع نفعه متعدي ، إذ فيه مصلحة للإسلام والمسلمين وفيه منافع وفوائد جليلة وهو ضرب من ضروب الجهاد في سبيل الله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٤٢) و مسلم (٨ / ٢١) و أبو داود (٤٧٩١) و الترمذي (١ / ٣٦٠) و أحمد (٦ / ٣٨) " الجامع " (٦٩ - ٧٠) وأحمد (٦ / ١٥٨) و البخاري في " الأدب المفرد " (٣٣٨)

(٢) (فتح الباري) ٤٧٢/١٠.

(٣) (شرف أصحاب الحديث) صـ ١٧ .

(٤) (إحياء علوم الدين) جـ ٣ صـ ١٦١ ـ ١٦٢.

قال ابن تيمية رحمه الله :"ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين. حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك، أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل. فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم، من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب ومافيها من الدين إلا تبعا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء" (١)

وقد أثرت جهود العلماء في الرد على أهل البدع فلم يتمكنوا من إضلال المسلمين .

كما يحسن بيان أن رد أهل القراءة الشمولية على أهل القراءة العضين كان بالعلم والعدل لا بظلم وجهل ، المقصود منه هدايتهم ، لا التشفي منهم ، أو التشهير بهم ، فلا يكفرونهم ، ولا يمنعونهم من حقوقهم الواجبة لهم كمسلمين ، ولا يزاد في

(١) (مجموع الفتاوى) ٢٣١/٢٨ ـ ٢٣٢ ، وله كلام قريب من هذا في (الصارم المسلول) صـ ١٧١.

عقوبتهم على العقوبة الشرعية ، ولا ينكرون ما عندهم من الحق ، ولا يغمطونهم فضائلهم .

قال ابن تيمية : «إن كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة أو أذنب ذنبا فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان فيدخل في العموم وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحقه عصاة المؤمنين

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يخرجهم من الإسلام بل جعلهم من أمته ولم يقل أنهم يخلدون في النار فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته فإن كثيرا من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة من جنس بدع الرافضة والخوارج وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وغيره لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء وخرجوا عن الطاعة والجماعة قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن لكم علينا أن لا نمنعكم من مساجدنا ولا حقكم من الفيء [1]

ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ثم قاتل الباقي وغلبهم ومع هذا لم يسب لهم ذرية ولا غنم لهم مالا

---

(١) وفي هذا الكلام القيم ما يبين العدل والإنصاف والقيام معه بحق الأخوة الإسلامية ، وتطبيقا لقوله تعالى : {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأنعام: ١٥٢ وهذا هو منهج أهل القراءة الشمولية .

ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين كمسيلمة وأمثاله وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان فقيل له أمشركون هم قال من الشرك فروا .

فقيل أمنافقون قال المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا قيل فما هم قال قوم بغوا علينا فقاتلناهم فقد صرح علي رضي الله عنه بأنهم مؤمنون ليسوا كفارا ولا منافقين وهذا بخلاف ما كان يقوله بعض الناس كأبي إسحاق الإسفرايني ومن اتبعه يقولون لا نكفر إلا من يكفرنا فإن الكفر ليس حقا لهم بل هو حق لله وليس للإنسان أن يكذب على من يكذب عليه ولا أن يفعل الفاحشة بأهل من فعل الفاحشة بأهله لأن هذا حرام لحق الله ولو سب النصارى نبينا لم يكن لنا أن نسب المسيح »(١)

فهم ينظرون للمحاسن والمساوئ والمنافع والمضار لكل فرقة بعدل وإنصاف، ولنأخذ على ذلك مثالين من كلام ابن تيمية والذي يصفه أعدائه بالحدة مع المخالف ويقولون عليه ما لم يقل ، أو يقرؤون منهجه قراءة عضين لا يستوعبون سعة فهمه وإنصافه حتى مع مخالفيه وأعدائه ، بل حتى بعض أنصاره ومحبيه أخذوا جزءا مما قام به ابن تيمية فتجده يقرأ ابن تيمية العالم السلفي الذي رد على المخالفين وكشف شبهاتهم ، وينسى إنصافه وعدله مع مخالفيه وأعدائه من ذلك حين سُئِلَ : عَنْ رَجُلٍ يُفَضِّلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى الرَّافِضَةِ؟

---

١) المنتقى من منهاج الاعتدال - (١ / ٣٣٤)

الْجَوَابُ : الْحَمْدُ لله. كُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِهِ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي الْمُؤْمِنِ بِذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ الْبِدْعَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِدْعَةُ الْخَوَارِجِ وَالشِّيعَةِ وَالْمُرْجِئَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ أَوْ غَيْرِهِمْ ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كُفَّارٌ، كُفْرًا مَعْلُومًا بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ. وَالْمُبْتَدِعُ إذَا كَانَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا مُخَالِفٌ لَهُ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا بِهِ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ يَكْفُرُ فَلَيْسَ كُفْرُهُ مِثْلَ كُفْرِ مَنْ كَذَّبَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

ومثال آخر على العدل والإتصاف مع الفرق .

قال ابن تيمية : «وليس في أهل الأهواء أصدقُ ولا أعبد من الخوارج، ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرام مطلقا كما تقدم .

بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض .

وهذا مما يعترفون هم به. ويقولون أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضا ، وهذا لأن الأصل الذي اشتركوا فيه أصل فاسد مبني على جهل وظلم وهم مشتركون في ظلم سائر المسلمين ،فصاروا بمنزلة قطاع الطريق المشتركين في ظلم الناس .

ولا ريب أن المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض .

---

١) مجموع الفتاوى (٣ / ٥١٦)

والخوارج تكفر أهل الجماعة ، وكذلك أكثر المعتزلة يكفرون من خالفهم ، وكذلك أكثر الرافضة .

ومن لم يكفر فسق ، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأيا ويكفرون من خالفهم فيه .

وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول ولا يكفرون من خالفهم فيه، بل هم أعلم بالحق ، وأرحم بالخلق كما وصف الله به المسلمين بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس »[1]

هذه مجرد نماذج من إنصاف أصحاب القراءة الشمولية مع مخالفيهم فهم أهل الإنصاف بينما أصحاب القراءة العضين أهل الإجحاف وشتان ما بينهما .

مَلَكنَا وكَانَ العفوُ منا سجية ... فلما ملكتُم سَالَ بالـدَمِ أبطَحُ
وَحللتُمُ قَتل الأسَارَى وطَالَمَا ... غَدونَا مِنَ الأَسرَى نَمُن ونَصفَحُ
وَحَسبُكُمُ هَذَا التفَاوُتُ بَينَنَا ... فكُل إِنَــاءٍ بالـذي فِيهِ يَنضَحُ

وأود التنبيه على مسألة مهمة وهي التفريق بين القراءة العضين وبين التخصص والتميز في جانب من جوانب الدين ، أو شعبة في شعبة من شعب الإيمان، ومن الأدلة التي توضح المقصود وتبينه ما ورد في حديث أبي هريرة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يا

---

١) المنتقى من منهاج الاعتدال - (١ / ٣٢٨). والحديث في البخاري (ح ٤٥٥٧)

عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة)

فقال أبو بكر رضي الله عنه بأبي وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ . قال (نعم وأرجو أن تكون منهم) [1]

قال ابن عبد البر رحمه الله شارحا المراد من هذا الحديث العظيم :

«وفي هذا الحديث من الفقه والفضائل : الحض على الإنفاق في سبيل الخير ، والحرص على الصوم . وفيه أن أعمال البر لا يفتح في الأغلب للإنسان الواحد في جميعها ، وأن من فتح له في شيء منها حرم غيرها في الأغلب ، وأنه قد تفتح في جميعها للقليل من الناس وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه من ذلك القليل .

وفيه أن من أكثر من شيء عرف به ونسب إليه ، ألا ترى إلى قوله «فمن كان من أهل الصلاة» يريد من أكثر منها فنسب إليها لأن الجميع من أهل الصلاة ، وكذلك من أكثر من الجهاد ومن الصيام على هذا المعنى ونسب إليه دعي من بابه ذلك والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخارى (٦٧١/٢، رقم ١٧٩٨)، ومسلم (٧١١/٢، رقم ١٠٢٧) ومالك (٤٦٩/٢، رقم ١٠٠٤)، وأحمد (٢٦٨/٢، رقم ٧٦٢١)، والترمذى (٦١٤/٥، رقم ٣٦٧٤) وقال : حسن صحيح . والنسائى (٩/٥ ، رقم ٢٤٣٩)، وابن حبان (٥/٢ ، رقم ٣٠٨) . وأخرجه أيضًا : ابن خزيمة (١١٤/٤، رقم ٢٤٨٠) والبيهقى (١٧١/٩ ، رقم ١٨٣٤٤) .

ومما يشبه ما ذكرنا ما جاوب به مالك رحمه الله العُمَرِي العابد. وذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد كتب إلى مالك يحضه إلى الانفراد والعمل ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم ، فكتب إليه مالك أن الله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة ، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير ، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له والسلام . هذا معنى كلام مالك لأني كتبته من حفظي وسقط عني في حين كتابتي أَصْلِي منه»[1]

فمن فتح له في باب من أبواب الخير وكان أكثر وقته منهمكا فيه ، فلا يعاب إلا إذا جعل ذلك الباب هو الدين كله وهون من أبواب الدين الأخرى ، فعندها يقع في القراءة العضين .

وبالمثال يتضح المقال حيث يوجد في المجتمعات الإسلامية اليوم شباب متحمسون نحو الجهاد وبعضهم يتوجه لبعض البلدان الإسلامية للقيام بالجهاد ويعتبرون الجهاد هو الواجب الأوحد على الأمة في هذه المرحلة ، ويهزؤون بكل عمل إسلامي لا يتوجه للجهاد ، فالعالم والداعية والعابد كلهم في نظرهم لا يفيد الأمة إنما الفائدة والمخرج الوحيد للأمة هو الجهاد ، ومما يؤسف له

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - (٧ / ١٨٤).

أن بعض هؤلاء الشباب انحرفوا نحو الغلو والتكفير والتفجير والله المستعان، وذلك بسبب القراءة العضين والتي حصرتهم في جانب من جوانب الدين وجعلتهم يغفلون عن جوانب أخرى عظيمة مهمة .

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى أبرز النتائج والتوصيات منه على النحو الآتي:

- إن الأمر بالاجتماع والائتلاف والنهي عن التفرق والخلاف من قواعد الإسلام وأصوله العظام.
- إن المراد بالقراءة العضين في هذا البحث هو (الأخذ ببعض الحق وترك بعضه الآخر)، وهو منهج قائم على تجزئة الدين وتفريقه وتعضيته، وعدم الأخذ به كله.لأنه يقوم على انتقائية للنص الشرعي يأخذ المنتقي من النص ما يهوى ويدع ما لا يوافق هواه .
- إن تاريخ الفرق يشهد بأن كل فرقة غلت وأغرقت في جانب من جوانب الدين وأهملت الجوانب الأخرى؛ فالوعيدية كالخوارج والمعتزلة تمسكوا بنصوص الوعيد فقط وأهملوا نصوص الوعد، بينما المرجئة بضدهم، والمعطلة تمسكوا بنصوص التنزيه وتركوا نصوص الإثبات، والممثلة بضدهم، وهكذا سائر الفرق المتقابلة والمتضادة من قدرية وجبرية، ورافضة وناصبية كلٌّ فرّق دينه وأخذ ببعض الحق دون بعض.

- إن الفرق الإسلامية ضاهت الأمم السابقة؛ كاليهود والنصارى، فألقيت بين كثير منهم العدواة والبغضاء.
- إن لتفريق الدين آثارًا خطيرة على الأمة،فهو فهو سبب لوقوع العقوبات التي حلت بأهل الكتاب من قبلنا ، وسبب للشقاق والافتراق، ولوقوع العداوة البغضاء وذهاب الألفة والمحبة، كما أنه يؤدي إلى كثرة الفرق وكثرة انقسامها على نفسها.
- إن أخذ الدين بشموله وكماله واعتداله ووسطيته، جامع للأمة وموحد للكلمة، وعاصم من التفرق وذهاب القوة والدولة.

إن الأمة الإسلامية حين طبقت القراءة الشمولية للدين تسنتمت موقع القيادة والتأثير وحققت النهضة الشاملة لأنها فهمت هذا الدين ، وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدون ، شاهد بلسان حاله ومقاله على ذلك .

وأوصي في ختام هذا البحث بتوصيات مهمة :

١- أن يقوم ثلة من علماء الأمة الراسخين بعمل ميثاق إسلامي يجمع الكليات والثوابت المحكمة في الدين، والتي لا يسع مسلما تركها.

٢- الحرص على الجماعة والإئتلاف وتوحيد الصفوف وفق

الأصول الشرعية فالأمة اليوم تعاني من أزمة تجزؤ وتفرق على مستوى الدول والشعوب في مختلف المجالات، بل حتى للأسف بين طلبة العلم والدعاة إلى الله تعالى وهم مدعوون بالدرجة الأولى لرأب الصدع وجمع القلوب على الحق والبر والتقوى .

٣- الاهتمام بالمناهج التعليمية ومراعاة اجتناب القراءة العضين فيها ، وأن تكون وفق القراءة الشمولية التي جمعت محاسن دين الإسلام دون إفراط أو تفريط ، وذلك حتى تخرج الأجيال التي تربت على منهج الإسلام المتكامل الشامل .

٤ ــ حث الدعاة إلى الله تعالى إلى التكامل والتكافل وفهم الإسلام الشامل وترك التعصب والتنازع و لا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

وكفى بربك هاديًا ونصيرًا.

فهرس المراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ابن بطة العكبري، تحقيق رضا معطي نعسان، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢- أثر القراءة العضين وتداعياتها في فهم السنة النبوية، رقية العلواني، بحث ضمن مجموع أعمال ندوة: الحديث الشريف وتحديات العصر، المنعقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي، (١٨- ٢٠ / صفر/ ١٤٢٦هـ).

٣- أساسيات منهجية للاستمداد من الوحي، د. عبد السلام الأحمر ، بحث طبع ضمن أعمال الندوة العلمية والدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، قطوان المغرب، (٢٧- ٢٨/ صفر ١٤٢٩هـ) ط١، ٢٠٠٨م .

٤- أصول الدين للبزدوي، مطبعة جاويد، كراتشي.

٥- أصول الفرق والأديان، سفر الحوالي، دار الدراسات العلمية، مكة، ١٤٣٠هـ.

٦- الاعتصام، الشاطبي، تحقيق سليم الهلالي، المكتب الإسلامي، بيروت.

٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت، ١٩٧٣م.

٨- تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ.

٩- التضامن الإسلامي واجب ديني وضرورة إنسانية ضمن أبحاث الملتقى الأول لعلماء المسلمين تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية، ط ١، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٧هـ.
١٠- تفسير ابن كثير، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت.
١١- تفسير الطبري، ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٢- تلبس إبليس، ابن الجوزي، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٣- تيسير الكريم الرحمن، السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢٠هـ.
١٤- الحجة في بيان المحجة، أبو القاسم الأصبهاني، تحقيق محمد المدخلي، دار الراية، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ.
١٥- دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، ناصر العقل، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، الرياض، ط١،١٤١٨هـ.
١٦- الرسالة، الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، مصر.
١٧- الروح، ابن القيم، بتحقيق العطار، دار الفكر، بيروت، ط١٤١٩،١هـ.
١٨- زاد المسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣،١٤٠٤هـ.
١٩- السلسلة الصحيحة، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٠- سنن أبو داود، أبو داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١- سنن الترمذي، الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢- الشريعة، الآجري، تحقيق عبد الله الدميجي، دار الوطن، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٢٣- صحيح البخاري، الإمام البخاري، دار إحياء التراث العربي.

٢٤- صحيح مسلم، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٥- الطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.

٢٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

٢٧- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت.

٢٨- الفرق الإسلامية، محمود مزروعة، القاهرة.

٢٩- في ظلال الجنة، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٠- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣١- الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ.

٣٢- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط١.

٣٣- مجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع ابن قاسم، دار عالم الكتب،

الرياض، ١٤١٢هـ.
٣٤- المحكمات في الشريعة، د. عابد السفياني، دار ابن الجوزي، الدمام.
٣٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ.
٣٦- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دارالكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٣٧- مستقبل العالم الإسلامي تحديات في عالم متغير، تقرير استراتيجي سنوي يصدر عن مجلة البيان ، الإصدار الأول، ١٤٢٤هـ.
٣٨- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
٣٩- مناهج الاستمداد من السنة النبوية بين التجزئ والنسقية، د.توفيق الغلبزوري، بحث ضمن أعمال الندوة العلمية والدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، قطوان المغرب، (٢٧- ٢٨/ صفر ١٤٢٩هـ) ط١، ٢٠٠٨م.
٤٠- الموافقات، الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.
٤١- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٤٢- الوحدة الإسلامية بين موجبات إحيائها وعوامل تثبيطها، د. أبو لبابة الطاهر صالح حسين، ضمن أبحاث الملتقى الأول

لعلماء المسلمين تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية، ط ١،
رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٧هـ.

فهرس الموضوعات